

الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثُر الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليتمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنُوا بالنظم فيه ، وهي عناية أعدته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الحصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صورة القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبتثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضري المرهف ، على نحو ما مرَّ بنا في الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُسَعِّن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدلات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعبوية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظرائهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون في غزلهم عن غرائزهم

النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدثت كثير من منهم - باستثناء
بشار - ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالعلمان ، وهو يصور
ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان
لا يرفعون ولا يستحون .

وكان يجري بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق
ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادي الحجاز
وحتى تجرى أسراب منه في مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشمي الملقب بالقَسَّ
لنسكه وفي المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه في البوادي قيس بن
ذريح وجميل بن معمر العُدَري ، حيث نجد الحب النقي الطاهر الذي يملك
على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوي الحاد الذي
يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته في شعر عذب لا يחדش حياء ، شعر يموج
بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظلم الذي لا ينتهي . وطبيعي أن يضعف هذا التيار
في العصر العباسي الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت
له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى
ثم يَمُنَّ وضُرِبَ بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش
الحب في قلوبهم قوياً حاداً ، ومن خير من يصور ذلك علي بن أديم الكوفي الذي
أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض
المهاسمين ، فطار له ، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله^(١) :

صاحوا الرحيلُ وحثني صَحْبِي قالوا الرواح فطِيرُوا لُبِّي
لا صَبَرَ لِي عند الفِراقِ على فَقدَ الحبيبِ ولوعةَ الحبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها في كتاب مفرد مشهور صنعه
أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرها
متعاً لَمَّ عند العامة » وفيها يقول^(٢) :

يا نُصِبَ عينيَ لا أرى حيث التفتُ سواكِ شياً

إِنِّي لَمَيِّتٌ إِنْ صَدَدْتُ وَإِنْ وَصَلْتُ رَجَعْتُ حَيًّا
وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِدَاعَ رَأَاهَا تَغْنَى
ببعض دور النخاسة ، فشَغِفَ بِهَا شَغْفًا شَدِيدًا وَاتَّصَلَتْ زِيَارَاتِهِ لَهَا ، وَبَادَلْتَهُ
حُبًّا بِحُبِّ ، وَلَقِيْتَهُ ، وَلَكِنِهَا ظَلَّتْ تَدَافِعُهُ عَنِ نَفْسِهَا ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَعِدُهُ الزِّيَارَةَ
وَلَا تَزُورُهُ . وَهُوَ يَقُولُ لَهَا دَائِمًا إِنِّي أَحْبَبْتُكَ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (١) :

رُبُّ وَعْدٍ مِنْكَ لَا أَنْسَاهُ لِي أَوْجَبَ الشُّكْرَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي
أَقْطَعُ الدَّهْرَ بظَنِّ حَسَنِ وَأَجَلِّي غَمْرَةً مَا تَنْجَلِي
كَلِمَا أَمَلْتُ يَوْمًا صَالِحًا عَرَضَ الْمَكْرُوهَ لِي فِي أَمَلِي
وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْرِنِي الَّذِي أُرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْرِنِي أَجَلِي

وبينما هو يمني نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدي ، فحُجِبَتْ
عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة . واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل
شيء من أمره ، ففضى يتغنى بها طويلا ، وكان خلأته يلومونه ويقولون له : إنها
تبخل عليك بودها ، فدعها إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله (٢) :

أَنَّ حُجِبَتْ عَنِّي أَجُودَ لغيرها بُوَدِّي وَهَلْ يُغْرَى الْمَحَبَّ سِوَى الْبُخْلِ
أَسْرُ بِأَنْ قَالُوا نَضِنُّ بُوَدَّهَا عَلَيْكَ وَمَنْ ذَا سُرِّ بِالْبُخْلِ مِنْ قَبْلِي

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له في عصر بني أمية
الذي تفرقه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلم يصور حبًّا جامحًا ، وكان
في صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، أَلْمًا تعجز النفوس العادية عن
احتماله ، أَلْمًا يعصف بهم كالسيل المندفَع الذي لا يترك لهم رويَّة ولا أناة ، إنما يترك
لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذري في العصر
العباسي الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه
الغزل العفيف الأموي ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجري فيه
التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حدًّا فاصلاً في هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

(١) أغاني ١٢/١٤٤ .

(٢) أغاني ١٢/١٥٣ .

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتمسون ولا يتوقرون ، والذين يعبرون عن الحب الجلسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه اوعه ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما تلقانا فى أشعاره لصاحبه عبدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لحنان جارية الثقفين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يفضنيه ويبرح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغاني لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعاً ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبه له (١) :

أحبك حُبَيْنِ : لى واحدٌ وآخرُ أنلكِ أهلُ لذاكِ
فأما الذى هو حبُّ الطُّباعِ فشئى خُصِصتِ به عن سواكِ
وأما الذى هو حبُّ الجمالِ فلستُ أرى ذاكِ حتى أراكِ
ولستُ أمنُ بهذا عليكِ لك المَنُّ فى ذا وهذا وذلك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلاً على هذه القطعة ، فأصبحت أمماً للشعر الصوفى كله على نحو ما سئرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغاني حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومر بنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دقائق المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضاً حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

في غزلهم ، وهي شيء طبيعي مردّه إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكن متبدّيات إنما كن متحضرات ، فكانوا يختارون هن اللفظ السهل البسيط الذي يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هي شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة في هذا الغزل ، وقد أوضحنا في كتاباتنا عن عصر بني أمية نشوء هذه الظاهرة في شعر الغزل الأموي بسبب معانقته لنظرية الغناء التي استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملازمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعها بحيث يؤدّي ما يريدونه من مدّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهي غاية أحدثت في الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث .

وقد بسطنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » كيف أن هذه الظاهرة نمت في غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هي أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغي أن ننسب هنا إلى أن الغزل هو الذي دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير في الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفي القوافي .

وظاهرة خامسة تقرن بالجوارى اللاتي كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسن صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يرسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطرحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن في هذا الباب عريب جارية المأمون ومتم جارية علي بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز في آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصلاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفي ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويجمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعاني النادرة فتجيبه بديها^(١) » ويروي بعض محاوراتها مع أبي نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفي مولها قد ضربها وهي تبكي فقال :

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتُ عنانٌ فجرى دَمْعُها كالدرِّ قد تُوبع في خيطه
فقلت ، والعبرة في حَسَلَتِها :

فليت من يضر بها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوَطِه
ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً في كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجيزه
وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعته تنفَّس من أحشائه أو تكلماً
فما لبث أن قالت :

وببكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقعة في الغزل العباسي ،
إذ كن يعجبين باللمحة الدالة والخطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم
في تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسن منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرَّ بنا
في الفصل الثاني . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً ،
ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه ؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما
من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس
المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرقي .

العباس بن الأحنف (١)

عربي من بني حنيفة ، كان أباه ينزلون في خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع
منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد ، ويظهر
أنه نشأ في نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجذب إليه عامة
الشعراء طلباً للنوال والعتاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

١٢/١٢٧ وشذرات الذهب ١/٢٣٤ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء ١٢/٤٠
وقد نشرت ديوانه وحققته عائكة الخرجي وطبعته
بمطبعة دار الكتب المصرية .

(١) انظر في العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى (طبعة
دار الكتب) ٨/٢٥٢ و ١٦/٢٤٢ - ٢٤٥
(و طبعة السامى) ١٥/١٣٥ وتاريخ بغداد

أمثال أبي نواس وغير أبي نواس ، ولكن دون أن يتردّي في خلائعهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم ، وفي ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على سترٍ وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُلْبِقُ درهماً ولا يجبس ما يملك » . وفي أشعاره وصف للكثرة والصوبلجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقوون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربي البغدادي المهذب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره في ذوقه المصنّي المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته في التغنى بعواطفه وحبه ، وفي ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني ، وقدّمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلَعَاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد الترف ، وذلك بَيِّنٌ في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولاً غَزَرَ لآ غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه في غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدانت عليه أمره يصنّع أبيات يغنى فيها إبراهيم الموصلي ، فنعود صاحبتة إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأ بالترضى ، فلم تفعل حتى أفلقت وأرقت ، وصار بأمر عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكي ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول في ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنبٌ وكلاهما مُتَعَبٌ متغضبٌ

صدت مغاضبةً وصد مغاضباً وكلاهما مما يعالج مُتَعَبٌ

راجع أحببتك الذين هجرتهم إن المتيم قلما يتجنب
 إن التجنب إن تطاول منكما دب السلولة فعز المطلب

وألقاها إلى إبراهيم الموصلي فغنتى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة
 فترضاها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما
 الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ،
 وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، ف وقعت في قلبه ، وأخذ يكتر
 من زيارته ، وهو إنما يريد لها ، وعرفت حبه ، فكانت تصد عنه ، وهو يزداد حبا
 وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم مالى رأيتك ناحل الجسم
 يا من رمى قلبى فأقصده أنت العليم بموضع السهم^(١)

وأخذ يكتر من شكواه وتضرعه مصورا سهاده وما دلعته من نيران العشق في
 قلبه ، وغدا مستهما بها يحبها كل الحب ويفتن بها كل الفتون ، حتى لكانها
 غدت ليلي وغدا الحنون ، فهو دائما يصف صباهته بها ووجده وجدا لم يجده أحد ،
 وجدا يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة ، وقد مضى يصور ذلك لا في قصيدة أو
 قصائد معدودة وإنما في ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غداء روحيا ممتعا ، لأنه يرتفع
 عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد
 أواره ، من مثل قوله :

الحب أول ما يكون لاجحة تاتى به وتسوقه الأقدار
 حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كيار
 نرف البكاء دموع عينك فاستعز عينا لغيرك دمعها مدرار
 من ذا يُعيرك عينه تبكى بها أرايت عينا للبكاء تُعار

(١) أقصده : أصابه .

وقوله :

أُحْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشَقُوا
صَرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تَضْيِئُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ،
مخلّفة وراءها حسرته وآلامه وعذابه ، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلاً أو قصيراً
أو أن تزور عنه في بعض زيارته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء
بمثل قوله :

أَبْكَى الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَيَقْظُونِي لِلْهَوَى رَقَدُوا
جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يَوْفُوا بَعْدَهُمْ قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ يَوْفُونَ إِنْ عَهَدُوا
لأُخْرِجَنَّ مِنَ الدُّنْيَا وَجِبْكُمْ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ

وقوله :

لَمَّا رَأَيْتَ اللَّيْلَ سَدَّ طَرِيقَهُ عَنِّي وَعَذَّبَنِي الظُّلَامُ الرَّأْكَدُ
وَالنَّجْمُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ أَعْمَى تَحْيِيرٌ مَا لِدَيْهِ قَائِدُ
نَادَيْتُ مَنْ طَرَدَ الرِّقَادَ بِصَدِّهِ مِمَّا أَعَالَجَ وَهُوَ خِلْوٌ هَاجِدُ
أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفُونِ عَيْنِي حَرَقَةً فإِلى مَتَى أَنَا سَاهِرٌ يَا رَاقِدُ

وفي قصيدة هذه المقطوعة يقول :

وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارِقٌ لِلوَلَدِ الصَّغِيرِ الوَالِدُ

ونجرت من مِلْك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسي وحجج
بها ، ففضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه في أشعار كثيرة من مثل
قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أَزِينِ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ أَجِيبِي دَعَاءَ مَشْهُوقٍ بِالْعِرَاقِ غَرِيبِ
كَتَبْتُ كِتَابِي مَا أَقِيمُ حُرُوفَهُ لَشِدَّةِ إِعْوَالِي وَطُولِ نَحْيِي

أخطُ وأمحو ما أخطُ بعبرة تسحُّ على القِرطاس سَحَّ ذَنوبٍ (١)
 أيا فوزُ لو أَبصرتني ما عرفتني لطول نحولي بعدكم وشحوبي
 وأنتِ مَنْ الدنيا نصيبِي فإن أمت فليتكِ من حُور الجنان نصيبِي
 أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم فياربُّ قَرَبُ دارَ كُلِّ حبيب
 وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها
 حتى وافته منيته سنة مائة واثنين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض
 الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو
 لا يكاد يرفعه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

ياسقِمَ الجسم من مِحْنِهِ مُفْرَدًا يبكي على شَجْنِهِ
 كلما جَدَّ البكاءُ به دَبَّتِ الأسقام في بدنه
 ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرد ، فسمع
 تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤادَ شَجِي طائرٌ يبكي على فَنْنِهِ
 شَفَّهُ ما شَفَّتِي فبكي كلُّنا يبكي على سَكْنِهِ

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه .

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذري طاهر نقي وأنه يمتاز بجزالة
 اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعاني والحواطر حتى لكأنما يستمد من معين في
 نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شيء من صور البديع ، غير أنها تأتي
 عفواً ، ولا تؤثر أى تأثير في قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفِع .

ربيعة الرقعة (٢)

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرقعة ، بها مولده ومنشؤه ، وكان
 ضريراً ، وفتحت شاعرته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رقى إلى سمع المهدي ،

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .
 (٢) انظري ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز
 ص ١٥٧ والأغاني (طبعة دار الكتب)
 ٢٥٤/١٦ ومعجم الأدباء ١٣٤/١٠ ونكت
 الهيمان ص ١٥١ .

فأشخصه إليه ، فدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلاً . غير أنه حين
إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلاً ، مما كان سبباً في إخمال ذكره ،
لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء في بغداد . ولم تَرَوْ له كتب الأدب شيئاً
من مديحه في المهدي إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها في العباس بن
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صَفِيَّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قيل للعباس يا بن محمدٍ قل : لا ، وأنت مخلدٌ ، ما قالها
ما إن أعدُّ من المكارم خَصْلَةً إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسميرون في بلدةٍ كانوا كواكبها وكنت هلالها
وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجُنَّ غيظاً ، وهجاه هجاء مريراً .
وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة .
ومن صلبى هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسيد السلمي ،
وكان قد ردّه ردّاً غير جميل ، بينا أوسع له في العطاء يزيد بن حاتم المهابي ،
فضى يقول أبياته السائرة :

لشتان ما بين اليزيديين في الندى يزيد مُسَلِّمٍ والأغرّ ابن حاتم -
يريد سُليمٍ سالم المال والفتى أخو الأزْد للأموال غير مسلم -
فهمُ الفتى الأزديّ إتلافُ مالِهِ وهمُ الفتى القيسيّ جَمْعُ الدراهم -
فلا يحسب التّمتمُ أنى هجوته ولكنني فضلتُ أهل المكارم -

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلاً كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما
شعره في الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعاً ، وما أجد أطبع ولا أصحّ غزلاً منه ،
ويقول أيضاً : « كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس لأن في غزل أبي نواس برّداً
كثيراً وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسَلِّك في الغزل الصريح إذ كان
فيه هو حتى لُقِّبَ بالغاوي ، ومن كان يهواهن جارية يقال لها « عَشْمَة » كانت
أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت في قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعْتَمَةُ أَطْلِقِي الْعَلَقَ الرَّهِينَا بعيشك وارحمني الصَّبَّ الحزينا^(١)
 تَعَلَّقْ زَائِرًا لَكَ فَارْحَمِيهِ فقد أورشمتِ زائرِكِ الجُنونا
 وَلَا أَنْ رَأَى النَّاسُ قَالُوا تعالى اللهُ ربُّ العالمينا
 فَقَدْ أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَاشْكُرِيهِ جمالاً فوقِ وَصْفِ الواصفينا
 إِذَا أَقْبَلْتِ رُعْتِ النَّاسِ حُسْنًا وإن أدبرتِ قَبِدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية سُغِف بها ، وقد سُغِف من بعدها بجارية من جواري الكرخ ببغداد تسمى « رُخاص » كما سُغِف بأخرى تسمى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إِنْ غَيْرُ صَاحِي أبداً من حُبِّ داحِ
 أَنَا وَاللَّهِ قَتِيلٌ لكِ من غيرِ جراحِ
 لَا بِسَيْفٍ قَتَلْتَنِي لا ، وَلَا سُمْرِ الرَّمَاحِ
 أَنْتِ لِلنَّاسِ قَتُولٌ بالهوى لا بالسَّلاحِ
 وَبِشَكْلِ وَبِدَلِّ وبِحُسْنِ وَمُزَاحِ
 وَبِعَيْنِينَ صَيُّودِي نِ وَتَغْرِ كالأقاحي
 لَيْتَنِي كُنْتُ حَمَامًا لكِ مقصوصِ الجناحِ

وله في جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل ، وفي إحدى قصائده فيها يقول :

الْحُبُّ دَائِمٌ عَيَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا نَسِيمٌ حَبِيبٌ طَيِّبٌ النَّسَمِ
 أَوْ قَبْلَهُ مِنْ فَمٍ نَيْلَتْ مُخَالَسَةً وَمَا حَرَامٌ فَمٌ أَلْصَقْتَهُ بِفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع في عصره ويتشتر على كل لسان ، حتى ليقال إن جواري المهدي هن اللاتي دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره . ويتصل بهذا الانتشار ما يروى من أن صانعي البسط كانوا يكتبون أشعاره

(١) يريد بالعلق الملقق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى في دَوْرٍ بساط قديم من بسط دار
الخلافة هذه الآيات :

وتزعم أنى قد تبدلتُ حُلَّةٌ سواها وهذا الباطل المتقولُ
لحا الله من باع الصديقَ بغيره فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
ستصيرمُ إنساناً إذا ما صرمتننى يحبك فانظرُ بعده من تبدلُ
وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال
ديباجته ونصاعة ألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة . ويقال إنه توفى سنة ١٩٨
للهجرة .

٢

شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ،
وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان
كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس
وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية
مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من
يريد تحطيمها تحطيماً . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما
كانت أسواقاً للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى
الغزل بالغلما ن غزلاً يصور - عند أبى نواس وأضرابه - انحطاطاً خلقياً شنيعاً .
وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدت إلى انحلال الروابط
الاجتماعية لتسلطن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن
مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشِئْنَ على اللهو والمجون والابتذال
والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدي عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديواناً للزنادقة وكان حريصاً به أن يتخذ ديواناً آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكناً لاهو ولا من تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهاماً واسعاً ، حتى غلدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم في الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون في المجون والفجور ، وحقاً صرخ شيوخ البصرة من أمثال وأصل ومالك بن دينار في وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدي ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت . ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش في غزل الإمام ما بلغه الجليل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعاً لهذا العصر في الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدَّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بني أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدَةَ ورُبَيْحَةَ وسَلَامَةَ الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشراعة بن الزندبُود ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحياناً من الفحش^(١) . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مريداً، فهو يسرف في المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكليلٌ يَتَنَسَّبُ في قبيلة أسد^(٢) ، وهى والعرب جميعاً برآءُ منه ومن فحشه

في والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد
٥١٨/١٣ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٦٤/١١

وما بعدها ٥٦/١٥ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٤٢ وانظر

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه في الروم^(١) ، وهو الذى أدب أباً نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافاً رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . ومن خلفوا أباناً وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خازجة مولى بنى أسد ، وكان ورّاقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى التبيذ ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاماً نصرانياً يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصرارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول^(٢) :

زُنَّارُهُ فى خَصْرِهِ معقودٌ كأنه من كَبِدِي مقدودٌ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الخاركي ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعتُ العذارحتى عاشرت الخاركي فجاهر بذلك ولم يحتشم فامثلنا نحن ما أتى به وسلكتنا مسلكته ، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيالٌ عليه^(٣) . وكان طبيعياً أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدي ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن عجائبها المشهورين الرقاشى ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس ، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها :

أوصى الرقاشى^٤ إلى إخوانه وصيةَ المحمودِ فى نُدمانه^(٤)

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والحراش بين الديكة والكلاب^(٥) . وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونفحتها ودانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلاً للربان والراهبات وزنانيرهم .

ونرى أباً الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينص^٦ على

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .

(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

(١) أغاني ١٤٣/١٦ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبعة الساسى) ٨٧/٢٠ .

(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .

خبث دينهم أو على زندقتههم ومروقهم من الإسلام وشريعته الفراء على نحو مانرى
 فى حديثه عن حماد الراوية وحماد عَجْرَد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على
 مذهب مزدك الذى يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر
 أشربوا حباً مذهب مانى وما فيه من الزهد والانصراف عن مُتَمَع الحياة وخير من
 يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدى .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حيثئذ فى الخمر والمجون
 لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأتابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم
 ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان فى أول أمره
 خليعاً ماجناً منهكاً فى الشراب ، ثم نَسَكَ بعد ما حمرَّ ومات على طريقة محمودة »
 ويروى أن المهدي شك فى أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سَوْط على أن يقرَّ
 بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طَرَفَةَ عين ، فقال له المهدي : فأين
 قولك :

اسْقِنِي وَأَسْقِي خَلِيلِي فِي مَدَى اللَّيْلِ الطَّوِيلِ
 قَهْوَةً فِي ظِلِّ كَرَمٍ سُبَيْتٌ مِنْ نَهْرِ بَيْلٍ^(١)
 فِي لِسَانِ الْمَرْءِ مِنْهَا مِثْلُ طَعْمِ الزَّنَجَبِيلِ
 قُلْ لَنْ يَلْحَاكَ فِيهَا مِنْ فَقِيهِ أَوْ نَبِيلٍ^(٢)
 أَنْتَ دَعَّهَا وَارْجُ أُخْرَى مِنْ رَحِيقِ السَّلْسَبِيلِ^(٣)
 تَعْطَشُ الْيَوْمَ وَتُسْقَى فِي غَدٍ نَعْتِ الطُّلُولِ

فقال للمهدي : كنت فى من فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ
 على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فحلّى سبيله ورقى^(٤)
 له . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة
 والمجون وهم حماد عَجْرَد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .
 (٤) أغاني ٢٨٥/١٥ وما بعدها .

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق . سبى
 الخمر : حملها من بلد إلى بلد .
 (٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .

حماد^(١) عجرد

من المولى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبَالًا يَسْبِرَى السَّبَل ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُتِبَ بعَجْرَد لأن أعرابياً مرَّ به في يوم شديد البرد وهو عُرْيَان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجرت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفا على التعلم والتأدب ، حتى أتقن العربية وانتظم في سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يَرْمَوْنَ بالزندقة » . فهو لم يكن ماجناً فحسب ، بل أشربت روحه الزندقة كما أشربت المجون ، وقد مر بنا في الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمى بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتى إذا حُيس في سجن الزنادقة وجدهم يقرءون في صلاتهم شعراً مزاجاً له ، فعرف أنه كان إماماً من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إلياس ويحيى ابن زياد . وهو يَسْأَلُكَ في مخضرى الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحاً عارياً مكشوفاً ، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أن ماني وديصانا وعُصبتهم جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

١٤٨/٨ والحيران للحافظ ٤٤٧/٤ وفي مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمال المرتضى (طبعة الحلبي) ١٢٨/١ - ١٣٤ . ولسان الميزان ٣٤٩/٢

(١) انظر في حماد وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢١/١٤ وابن المعتز ص ٦٧ - ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ٢٤٩/١٠ وابن خلكان وتاريخ بغداد

أنت العبادة والتوحيد مذخلقا وذا التزندق نيرنج مخاريق
فهو يفوق - في رأيه - ماني وديسان وأصراهما من رموس الزنادقة . ويعابته
صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نعم الفتي لو كان يعرف قدره ويقيم وقت صلته حماد
هدلكت مشافره الدنان فانفه مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد
وكانما كان عريه في صباه ولقبه عجرد الذي لزمه إرهاصا لما أخذ فيه بعد من
الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها في الحانات وفي الأديرة وفي البساتين ،
متغزلا في الإماء والغلمان غزلا مكشوفاً كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن
كانوا يمعنون معه في المحبون هازئين بالإسلام ودعوته التي تحرم الإباحة واقتراف
المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التي تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر
الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنيل
من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط في أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدي ،
ذلك أنه كان قد اتصل به من قبل وأدبه ، وترك فيه أثرا سيئا ، إذ جعله يميل
إلى اللهو وشيء من المجون . ورأى المنصور أن يهلك ستر ابن أخيه فولاه البصرة
بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحابه حمادا ، فأكمل إغواءه له ، وكشف
للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بانا يا أكرم الناس أعراقا وأغصانا
لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه ملحٌ عودك فينا المِسْكُ والبَانا

وحدث أن خطب محمد حين ولي البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسي
وكان يهواها ، فلم يزوجها له لنقص كانوا يرونه في عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب
إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد
ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفي لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حاراً بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكيناً بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا
ليتني متُّ حين موتك ، لا بل ليتني كنت قبلك المقبوراً
ولم يجرّ عليه نزواه البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرّ عليه
أيضاً معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه
أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه ، فبهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغف
بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله في
صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدمٍ ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار
— مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى
لم تكن أقل إيذاءً ، إذ كان يهجوهم بعماء وقبح خلقته ودنسه وقدارته مهوئاً منه
أشدّ التهوين ومستخفّاً به أشدّ الاستخفاف ، وقد أنشدنا في الفصل الرابع أطرافاً
من هذا الهجاء المُصمى ، وأكثرها جميعاً من هجو الأمهات والزوجات . ومن
المحقق أن حماداً كان يستعمل عليه في تلك المعركة ، إذ كان يُشيع في هجائه له
سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشاراً من التيه
وذلك إذ سمّيته باسمه ولم يكن حرّاً يسميه
لم أهجُ بشاراً ولكني هجوتُ نفسي بهجائيه

ونراه في بعض عبثه وطوه مع مطيع بن إلياس يلزمه بعض الامز ، ولكنهما
لا يندفعان في الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادين . واتصلت صداقته مع يحيى
ابن زياد ، وكان مثله خليعاً ماجناً متهماً بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة
وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب
إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسُكك لا يت مٌ بغير شُتمى وانتقاصى
فعليك فاشتُمُ آمنأ كلّ الأمان من القصاصِ

فلطالما زكيتني وأنا المقيمُ على المعاصي
أيام أنت إذا ذكرتُ مناضلٌ عنى مُناسي^(١)
وأنا وأنت على ارتكاب الموبقات من الجِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثاً كله برراً وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُرِّتَ من قلبي مكانا ممنعا أرى لك فيه أن أريق لك الدما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتني وإن كانتا والله صاباً وعلقماً
وأدخل كفي إثر كفلك في الذي عراك ولو أدخلتها ثقبَ أرقما^(٢)

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسي بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردُّه من الغزل بلسان ابن عمه في أخته على نحو ما أسلفنا فدحه أمداحاً مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقاً عليه وجدَّ في طلبه ، ففضى إلى قبر أبيه سليمان بن علي فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلِّنَّ قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبَّاه وهجاء هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمٌ بُرْعُوثٌ وَعَقْلٌ مَكَاتِبٌ وَعُغْلَمَةٌ سِنَوْرٌ بَلِيلٌ تَوَلُّوْلُ^(٣)
وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتني أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطبع^(٤) بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدَّ بهم

٢٧٤/١٣ وتاريخ بغداد ٢٢٦/١٣ وعيون
الاجبار ١٨٢/٢ وأمال المرتضى (طبعة الحلبي)
١٤٢/١ والديارات للشابشي ص ١٥٩ وما
بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٥١/٦ .

(١) مناصي : مدافع .

(٢) الأرقم : الثعبان .

(٣) تولول : تعول .

(٤) انظر في مطبع وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٩٤ والأغاني (طبعة دار الكتب)

عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف في حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوج بها فولد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسب أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك في هذا النسب مُحسباً أنه من صنع الرواة . وكل شيء فيه يؤكد أنه لم يكن عربياً إنما كان من الموالي ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى في مطامع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائز السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه في ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا في اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ونادمه ، ورافقه في ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتسى كئوس الخمر حتى الهالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبباً إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوماً : انطلق بنا إلى فلانة المغنية صديقتي فإن بيني وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلنا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلاً :

أنت معتلةٌ عليه ومازا ل مهيئا لنفسه في رضاك

فأعجب يحيى ما سمع ، وهش له مطيع ، ثم قال :

فدعيه وواصلني ابن إياس جعلت نفسي الغداة فداك

وأغربت البخارية في الضحك . وفي كتاب الأغاني أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف في داره وفي البساتين والأديار . وغزله في الغلمان قليل ، ولكن لا شك في أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير في القيان الكوفيات وخاصة في جوهر ، وفيها يقول :

أنت يا جوهرٌ عندى جوهره في قياس الدرر المشتهره

أو كشمسٍ أشرقتم في بيتها قذفت في كل قلبٍ شرره

وفي أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولي مدينة الرّى للمنصور سنة ١٤٥
وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلاً بجوار دارها، ولم يلبث المنصور
أن استدعى سلماً في نفس السنة ، فاضطّر مطيع إلى الرحيل معه ، وأتم في طريقه
بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته ، فخنقته العبرات وقال
أبياته المشهورة التي أنشدناها في الفصل الرابع والتي يخاطب فيها نخلتى حلوان خطاباً
مؤثراً شاكياً لهما فراقه الأحباء والحلان .

ومن الأجواد الذين فرغ إليهم في تلك الفترة يستمحيهم بمدائحهم معن بن
زائدة الشيباني ، ويروى أنه لما أنشده مدحته التي يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه
وحلمه وحصافته :

فتى نزارٍ وكهلها وأخو الـ جود حوى غايته من كسب
ترى له الحلم والنهى خلقتا في صولةٍ مثل جاحم اللهب

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبتك ،
فاستحي مطيع من إنبثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول
بديهة :

ثناء من أميرٍ خيرٍ كسبٍ لصاحبٍ فاقه وأخى ثراء
ولكن الزمان برى عظامى وما مثل الدرهم من دواء

فقال معن : لقد لظفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمرى ما مثل الدرهم من
دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.
وجذبتة بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولّى وجهه نحوها ،
وربما كان من أسباب ذلك خروج رقيقه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد
ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزّ
عليه في أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمانُ عسراً وشراً عندنا إذ أحلنا بغدادا
بلدةً تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماء الرذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسي ، فتحها له جعفر بن المنصور . وكان فيه خبث ، فاذنيز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدي بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدي ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً » . وسُرَّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدي . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهم بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدي تشفع فيه فعفا عنه ، وبذل له المهدي مائتي دينار ، وأوصى به والي البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدي ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذي جعله يفلت من عقابه حين شدَّد في تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برعوس كثيرين منهم . وبما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أتى بينت له في الزنادقة ، فأقرت بزندقته وتوبتها قائلة : هذا دين علمنيه أبي وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدي منهمكاً في الحجون والحلاعة والشراب والانطراح في مواضع اللذات ، ونظم في تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه نفيض حنانا وعظفاً وبيراً ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد ، ويقول ابن المعتز : « كان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة » . وحدث أن تهاجرا ولم يُطلق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى ككَيْدِيّ واحدٍ	نَرَمِي جميعاً وتَرَيْنَا معاً
إن عَضِيّ الدهرُ فقد عَضَهُ	يوجعنا ما بَعْضُنَا أوجعا
أو نام نامتُ أعينُ أربعُ	منا وإن أسهرَ فلن يَهْجَعَا
حتى إذا ما الشيبُ في مَفْرَقِ	لاح وفي عارضه أسرعَا
سَعَى وُشَاةٌ فمشوا بيننا	فكاد حَبْلُ الوُدِّ أن يَقطَعَا

حَتَّى إِذَا اسْتَمَكْنَ مِنْ عَشْرَةٍ أَوْقَدَ نِيرَانَ الْقَلْبِ مُسْرِعًا
فَلَمْ أَلْمُ يَحْيَى عَلَى فِعْلِهِ رَلَمْ أَقْلُ مَلًّا وَلَا ضَيْعًا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا
يعبان من دنان اللهو والمجون حتى كفَّ يحيى بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفي
فبكاه مطيع بكاء حاراً ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أهلى ابكوا لقلبي القريحِ وللدموع السواكب السُفْحِ (١)
راحوا بيحبي ولو تطاوعنى أُلُّ أقدارُ لم يبتكر ولم يرِح (٢)
ياخير مَنْ يحسن البكاء له ال يوم ومن كان أمس للمدح
قد ظفِرَ الحُزْنَ بالسُرور وقد أدبيل مكروهننا من الفرح (٣)

وواضح أن مطيعاً كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز في أشعاره بالسلامة
والعدوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل في كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان
المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ،
حتى تجرى على أفواه الناس ، وحتى تملأ آذانهم ، ويقول صاحب الأغاني
إن حكما الوادى المغنى تغنى في قطعة له ، فلم يبق سقاء ولا طحان ولا مكار
إلا غنى فيها . وقد ظل مطيع سادراً في غبه ومجونه حتى توفي سنة ١٦٩ وقيل بل
في سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

صالح (٤) بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزدي ، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل ، وكان في صدر

بنداد ٣٠٣/٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٦/١٢
وتاريخ دمشق لابن صاكر ٣٧١/٦ وفوات
الوفيات ١٩١/١ ونكت الهيمان للصفدي
ص ١٧١، ١٧٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٧٢/٣
وفهارس كتابي البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ،
وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي)
ص ٢٢٧ .

(١) السواكب السفح : المنجرة .
(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح
وهو وقت العشى .
(٣) أدبيل : أصبحت له دولة وصوله .
(٤) انظر في صالح وأخباره وأشعاره أمالي
المرتضى (طبعة الحلبي) ١٤٤/١ وما بعدها
وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩١ ورسالة
الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ

نشأته يختلف إلى حلقات الروعاط والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع في تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آباؤه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصليين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إله الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد في الحياة ونعيمها الزائل . ونراه في عصر بني أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركاً فيما كان يدور في مجلسه من مخاصمات كلامية ودينية^(١) ، ونظن ظناً أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهُتف به واصل ، كما هتف بيشار طالباً من أصحابه قتله^(٢) ، وفي بعض شعره أنه كان يسرّ نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ مِرٍّ كَمَتُّهُ فَكَأَنِّي أَخْرَسُ أَوْ ثَنِي لِسَانِي نَخْبِلُ
ولو آتَى أبديت للناس علمي لم يكن لي في غير حَبْسِي أَكْلُ

وتوفى واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسَّ صالح كأن الحياة واتته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حيناً ، وحيناً يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلي صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلواته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله في ذلك متعجباً ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى في العصر العباسي ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يواربها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف - كما يقول ابن النديم - كتباً في نصره عقيدته^(٣) . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره في الامتزاج الذي يدعيه المانوية بين النور والظلمة في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٦/٣ .
(٢) الفهرست ص ٤٧٣ .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/١٦٠ .

أبا الهذيلِ هداك الله يا رجلُ فأنت حقاً لعمري مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى في أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهي النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أي شيء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكان المسألة تحوَّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء ، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا في الديانات فحسب ، بل في حقيقة كل شيء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها في نفسها ، وبدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتاباً سماه كتاب الشكوك ، ويروى إنه مات له ولد ، فلقبه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جزيماً على ابنه ، فقال له : لا أعرف لجزعك وجهماً إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان ؛ فقال له النظام : فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يموت وإن مات ، وشك أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فحصر صالح . وفي أشعاره ما يدل على أنه عمي في آخر عمره ، إذ يقول :

عزائك أيها العينُ السَّكوبُ ودمعك إنما نُوبٌ تنوبُ

على الدنيا السلامُ فما لشيخٍ ضرير العين في الدنيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابكِ بَعْضاً فإن البعض من بعض قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدي في تعقب الزنادقة وينصب لهم ديواناً لحاكتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقى به في غياهب السجون ببغداد انتظاركاً لحاكته ، ويصور مشاعره وهو في السجن تصويراً دقيقاً بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموق

طوى دوننا الأخبارِ سجنٌ ممنعٌ له حارسٌ تهذا العيون ولا يهدأ

قُبِرْنَا وَلَمْ نُدْفَنُ فَنَحْنُ بِمَعزِلٍ مِنَ النَّاسِ لَا نُخَشِي فُنُغَشِي وَلَا نَعْشِي
 أَلَا أَحَدٌ يَاوِي لِأَهْلِ مَحَلَّةٍ مَقِيمِينَ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فَارَقُوا الدُّنْيَا
 كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ دَارِهِمْ وَلَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ التَّضَايِقِ وَالْبَلَاوِي

ويختلف الرواة في زمن هذه المحاكمة والخليفة الذي تولاها ، فمن قائل إنه المهدي ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذي حاكمه وناظره في زندقته الرشيد ، وكان قد أُنهِيَ إليه أبيات يهجو بها الرسول - كبرت كلمة تخرج من فيه - لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها^(١) ، وهي طعن صريح في الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شيء عن زندقته وإثنينيته وما نوته ، فأمر بالقبض عليه ، فزُجَّ به في السجن ، ثم عُقد له يوم لمحاكمته ، وتولَّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلاً حتى رُقَّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التي يقول فيها :

لا يبلغ الأعداء من جاهلٍ	ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يُوارى في ثرى رمسه ^(٢)
إذا ارعوى عاد إلى جهله	كذي الضننا عاد إلى نكسه ^(٣)
وإن من أدبته في الصِّبا	كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناصراً	من بعد ما أبصرت من يبسه

فتلا عليه الرشيد البيت الثاني ، وقال له : نحن نمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضربت عنقه وصلب على الجسر ببغداد عقاباً له وتنكيلاً .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفتنة ، والحث على مكارم الأخلاق واطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

(٣) الضننا هنا : المرض ، والنكس : الانعكاس
 أي رجوع الناقه إلى مرضه .

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .
 (٢) الرمس : القبر .

شيوع ذلك في أشعاره ابن المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقوله :

وليس بعجزِ المرءِ لإخطاؤه الغنى ولا باحتيالٍ أدرك المالَ كاسبُهُ
ولكنه قبْضُ الإلهِ وبَسْطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبه

يقول ابن المعتز : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟. وكأنما أحس أنه يصدر في البيت الثاني عما جاء في الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل في شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله في عَرْضِ السمواتِ جَنَّةٌ ولكنها محفوفةٌ بالمكاره

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثاني فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوي أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصري لا يخرج من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا في ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد في الدنيا الفانية فهي دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عنهم وعن أبي العتاهية في غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون في زندقة أبي العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن في زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانوياً كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم في البصرة حقاً متطاوله .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله في تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهي نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن في ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم^(١) ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر في الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

قصيدته الزينية التي تغزل في مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذر مصاحبة اللئيم فإنه
يلقاك يحلف أنه بك واثق
يعطيك من طرف اللسان حلاوة
واختر قرينك واصطفيه تفاخراً
واحفظ لسانك واحترس من لفظه
والسر فاكتمه ولا تنطق به
يُعدي كما يعدي الصحيح الأجر
وإذا توارى عنك فهو العقر
ويروغ منك كما يروغ الثعلب
إن القرين إلى المقارن ينسب
فالمرء يسلم باللسان ويعطب
إن الزجاجة كسرهما لا يشعب^(١)

ومن نمط هذه القصيدة الحكيمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية ، وفيها يقول :

المراء يجتمع والزمان يفرق
ولأن يعادي عاقلاً خيراً له
فأرباباً بنفسك أن تصادق أحقاً
وزن الكلام إذا نطقت فإنما
ويظل يرقع والخطوب تمزق
من أن يكون له صديق أحق
إن الصديق على الصديق مصدق
يبدى عقول ذوى العقول المنطق

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره في صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلماً شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدي الأجيال التالية ، إلا قليلاً ، وتنبه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة في قصائد مختلفة لسارت في الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسير ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع^(٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكيمية وظلت تدور فيها من مثل قوله في العزاء :

إن يكن ما به أصبت جليلاً فلفقد العزاء فيه أجل

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٦ .

(١) يشعب : يصلح .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فدَعَهُ
وجاوزَهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَكَ بعد ما هَرَمْتَ ومن العناء رياضةُ الهَرَمِ^(١)
وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء
القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التي صورناها من شعر المجنون والزندقة كانت تقابلها صفحة
رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنسك وأهل الحديث
والفقه والورع ، ومن حوطم العامة ، وقد صدقت كثيرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة
بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا
ينبغي أن تكون دار زاد لدار المعاد . وما ينى الوعاظ والنسك من المحدثين يترجونهم
عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن
العاقل من عرف أن الناس سَتَمَرٌ وعمّا قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم
مقيم ، فأسرع يفتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات
الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون في وعظهم
وقصصهم آياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنها
ما ينشئونه إنشاءً ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المري القصاص العابد من أنه كان
كثيراً ما ينشد في قصصه ومواعظه :

(١) العرس : الزوجة .

فبات يروى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَّجُلُ^(١) ،
 وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت ،
 حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعارٌ مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل
 محدود ونفس معدود ، وعمّا قليل يصبح الإنسان تراباً في تراب ، كمن سبقوه ، فأولى
 له أن يتعظ ويعتبر ، يقول^(٢) :

أتيت القبورَ فناديتها نَّ أين المعظمَّ والمحتقرَ
 وأين المدلُّ بسلطانهِ وأين المزكى إذا ما افتخر
 تفانوا جميعاً فما مخبرُ وماتوا جميعاً ومات الخبرُ
 تروح وتغدو بناتُ الثرى فتمحو محاسنَ تلك الصورُ
 فيا سائلِ عن أناسٍ مضوا أمالك فيما ترى مُعتبرُ

ومن كان يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري .
 وكان الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها
 مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس ، وقد أقبل كثير من ينظمون دقائق
 الزهد ، حتى بين الحبان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند
 أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن سير ، وكان ماجناً هجاء خبيثاً ، فقد ألم
 يوماً بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفضيل بن عياض ، فأشاد^(٣) :

ويْلٌ لمن - لم يرحم اللهُ ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
 واغفلتاً في كل يومٍ مضى يُذكرنى الموتَ وأنساه
 من طال في الدنيا به عُمرُهُ وعاش فالموتُ قُصاراه
 كأنه قد قيل في مجلسٍ قد كنت آتيةً وأغشاه
 محمدٌ صار إلى ربِّهِ يرحمنا اللهُ وإياه

وكان من الشعراء الخلقاء الحبان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

(١) البيان والتبيين ١١٩/١ والفسيل :
 (٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .
 (٣) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٩/١٤ .
 صفار النخل .

الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس في اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير في طريق غواية ، وأخذ يكثُر من شعر الزهد حاضماً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفاني بمثل قوله^(١) :

ومنتظرٌ للموت في كل ساعةٍ يشيد ويبني دائماً ويحصنُ
له حين تبلوه حقيقةً موقنٍ وأفعاله أفعالٌ من ليس يوقن
وقوله الذي مرّ بنا في الفصل الرابع :

اضرَعُ إِلَى اللَّهِ لَا تَضْرَعُ إِلَى النَّاسِ وَأَقْنَعُ بِيَأْمِنُ فَإِنَّ الْعِزَّ فِي الْيَأْسِ
وَأَسْتَعْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحْمٍ إِنَّ الْغِنَى مِنْ اسْتَعْنَى عَنِ النَّاسِ
وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرِضت عليهم وظيفة أبوها حرصاً على دينهم ورفضاً لدنياهم ، ومن اشتهروا في هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله في الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله^(٢) :

عِشْ مَا بَدَلَكَ ، قَصْرُكَ الْمَوْتُ لَا مَهْرَبُ مِنْهُ وَلَا قَوْتُ
بَيْنَنَا غِنَى بَيْتٍ وَبِهَجَّتْهُ زَالَ الْغِنَى وَتَقَوَّضَ الْبَيْتُ
واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوي الجاه لما في أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السند ، وجّه إليه يستزيه فكتب إليه^(٣) :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي دَعَاةٍ
سَخِيَّ بِنَفْسِي أَنِّي لَا أَرَى أَحَدًا
وَفِي غِنَى غَيْرِ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ
يَمُوتُ هَزْلاً وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ

(٢) البيان والنبين ٣/١٨٣ .

(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

(١) انظر في هذين البيتين وتاليهما العقد القرين ٣/٢٠٧ .

الرُّزْقُ عن قَدْرِ ، لا الضَّعْفُ يَنْقِصُهُ ولا يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلٌ مَحْتَالٍ
والفَقْرُ فِي النَفْسِ لا فِي المَالِ تَعْرِفُهُ ومِثْلُ ذَاكَ الغِنَى فِي النَفْسِ لا المَالِ

وفي كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف في هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهي الذي يتجرد عن كل مادة وحسّ والذي يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصور ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة^(١) :

أَحِبُّكَ حُبِّينَ : حُبُّ الهوى وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهوى فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلا الحَمْدُ فِي ذَا وَلا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ
وهي تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه ، وحب لجماله وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفي المحرد الذي يفنى فيه المتصوفة فناءً يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر في هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتوضح لنا المعاني التي كانوا يرددونها في أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كنانة ومحمود الوراق .

عبد الله^(٢) بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولاه ، التركي

والتهذيب لابن حجر ٣٨٤/٥ والنجوم الزاهرة
١٠٣/٢ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤
وحلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٩/٨ ومختصر جامع
بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة الموسوعات)
ص ٨٥ .

(١) قوت القلوب للمكي ٨٤/٣ وأحياء معلوم
الدين للغزالي ٢٦٧/٤ .
(٢) انظر في ترجمة ابن المبارك وأشعاره
الأنساب للسماني ١٧٩ أو تاريخ بغداد
برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ١٠٩/٤ وتذكرة
الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد) ٣٥٤/١

المروزي أبناً ، الخوارزمي أمماً ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدُّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدُّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفيان الثوري : « أو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويُلْتَمَى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طرسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فئات الموائد ، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفاً كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء ، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الضيوف المجاهدة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك ، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريقة توضح ذلك أم توضح ، فقد روى الرواة أنه أُملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاوراً بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ
 مَنْ كان يَحْضِبُ جِيدَه بدموعِهِ فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
 أو كان يُتَعَبُ خَيْلَه فى باطلٍ فخيولنا يوم الصَّبِيحة تَتَعَبُ
 رِيحُ العِيبِ لَكم ونحن عَيبِرنا وَهَجُ السَّنابِكِ والغبارُ الأَطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبينا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكذَّبُ
لا تستوى أعبارُ خَيْلِ الله في أنفِ امرئٍ ودخانِ نارٍ تَلْهَبُ^(١)
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميتٍ لا يكذبُ
وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس
إليه ضرباً من اللعب . وهو يصور الهوة التي تفصل بينهما ، فالناسك يقدم لربه
دموعه والجاهد يقدم دماؤه ، متخذاً الخيل العاديات لافي لهُو وإنما في التضحية
والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيباً بطيب أكثر شذى وِعطراً من الطيب الحقيقي،
طيب غبار الحرب وسنايك الخيل وهي تقدح الأرض قذحاً . ويقول إن الإسلام
أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا
يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً » كما يشير إلى ما جاء في
الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت ، بل يظل حيا عند ربه حياة خالدة :
(ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين
بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوفٌ
عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين)
وفي موضع آخر من التنزيل : (ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء
ولكن لا تشعرون) . وهي ميزة خصَّ بها الله سبحانه المستشهدين في سبيله دون
سائر المؤمنين من نساك وغير نساك ، إذ جعلهم يحيون في قبورهم حياة برزخية خاصة
لا يعلم حقيقتها سواه .

ولابن المبارك موقف ثانٍ يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون
في مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم
الدنيا فينحرفوا عن الجادة ، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيْيَّة
وكَيْي الصدقات بالبصرة ، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له : أحب أن تبعث إليَّ
إخواننا من القراء لتسئغلتهم* ، فأجابه : القراء ضربان : قوم طلبوا هذا الأمر
(أي قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم في لقائك ، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك
أضرُّ على الناس من الشرط ، وألحق ببجوابه هذه الآيات :

(١) الأعبار : جمع غبرة ، وهي الغبار .

يا جاعلَ الدينِ له بازياً يصطادُ أموالَ المساكينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها بحيلةٍ تذهبُ بالدينِ
وصرتَ مجنوناً بها بعدما كنتَ دواءً للمجانينِ
أينَ رواياتُك فيما مضى عن ابنِ عَوْنٍ وابنِ سِيرينِ
أينَ رواياتُك في سرِّها في تركِ أبوابِ السُّلاطينِ
إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ زلَّ حِمَارُ العلمِ في الطِّينِ
وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا » ونظم ذلك شعراً قاتلاً :

أرى أناساً بأدنى الدينِ قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعَيْشِ بالدونِ
فاستغْنِ بالدينِ عن دنيا الملوكِ كما تغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ
وهو كثير التنفير من الدنيا ومناعها الذي يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طبيئاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حييةً لينا مسها قاتلاً سمها :
حلاوةٌ دنياك مسمومةٌ فما تأكلُ الشَّهْدَ إلا بِسَمِّهِ
وهي خداعةٌ غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفرج أو مصيبة موجعة ، فن جرَّته يوماً حلاوتها جرَّته أياماً مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةٌ شبيبتُ بأكرهٍ من نقيعِ الحَنْظَلِ
وبناتُ دهرٍ لا تزالُ ملمةٌ فيها فجائعٌ مثلُ وَقْعِ الجَنْدَلِ
وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام ، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الخلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميّتُ القلوبَ ويخترمُ العقلَ إدمانها
يبيعُ الفتي نفسه في رداه وأسلمُ للنفسِ عصيانها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترج ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبي نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

محمد^(١) بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن آدم أحد من تُذكر أسماءهم في نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحتمل الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ في رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان — كما يقول أبو الفرج — امرءاً صالحاً فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما ينصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والانعاط بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمة دائماً زائلة ونقمة نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بِلَى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجري إلى غاية ينتهي عندها أجله ، ومن عجب أن تعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حريّاً به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدنيا تُبَقِّيك لليلِ وأنتك فيها للبقاء مريدٌ
وأىُّ بني الأيام إلا وعنده من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتليدٌ
ومن يَأْمَنُ الأيامَ أما اتساعها فَحَظْرٌ وأما فَجَعُها فَعتيدٌ^(٢)
إذا اعتادت النفس الرضاعَ من الهوى فإن فِطامَ النفس عنه شديد

الزاهرة ٢/ ١٨٥ .
(٢) اتساعها : نعيمها . خطرنا : منقطع .
عتيد : مهيب حاضر .

(١) انظر في ابن كناسة وأخباره وأشعاره
الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/ ٣٣٧ ،
والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه في طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمأثم ، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث في عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل في قلبه ، أو كأنه يَعْظُ ولا يتعظ ، وفي ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أَدْباً ولم يعمل بهِ ويكفَّ عن زَيْغِ الهوى بِأَدْبِيبِ
حتى يكون بما تعلَّم عاملاً من صالحٍ فيكون غير معيب
ولقلما تُغْنِي إصَابَةُ قائلٍ أفعاله أفعالُ غيرِ مصيب
فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير في القلوب، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها، وكانت كالسراج يضيء الدار ويحرق نفسه .
وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمرأه ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوף المؤلفة ، وهو يعيش في كفاف وبلسغ وصُبابه ، فكان يردهم رداً منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمماً ، غير راغب في متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذي ينتظره والذي يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلاً عن أن يمدحه ويدهنه ويطلب منه ما ينبغي أن لا يتجاوز في طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيباً بعض الأئمة :

تَوَسَّيْتَنِي - أَنْ صُنِّتُ عَرَضِي - عَصَابَةٌ لها بين أطنابِ اللثامِ بَصِيصٌ^(١)
يقولون لو غمضتَ لازددتَ رِفْعَةً فقلتُ لهم إني إذنٌ لحَرِيصٌ^(٢)
أَتَكَلِّمُ وجهي - لا أباً لأببيكم - مطامعُ عنها للكرامِ مَحِيصٌ^(٣)
معاشي دُوَيْنَ القوتِ ، والعِرْضُ واقِرٌّ وبَطْنِي عن جَدْوِي اللثامِ خَمِيصٌ^(٤)

(٣) تكلم : تبحر .
(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستمارة
وأضحة . بصيص : بريق .
(٢) غمضت : تسامت . حريص : جشع

سَأَلَتِ الْمُنَايَا لِمَ أَخَالَطُ. ذَنِيَّةٌ وَلَمْ تَسْرِ بِى فِي الْمَخْزِيَّاتِ قَلُوصٌ (١)

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروعة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة في الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزناً عميقاً ، صورّه في قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ يَا لَيْتَ مَا كَانَ مِنْكَ لَمْ يَكُنْ
إِنْ يَكُنِ الْقَوْلُ قَلًّا فَيْكَ فَمَا أَفْحَمْتَنِي غَيْرُ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وله مرثية طريفة في خاله إبراهيم بن أدهم ، وهي ترسم صورة العابد الناسك في العصر العباسي الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلاً على عبادة ربه ، قامعا للدواعي الهوى في نفسه ، متحلياً بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً في ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائماً مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذي لا يחדش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفي ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رَأَيْتَكَ مَا يَكْفِيكَ مَا دُونَهُ الْغَنَى وَقَدْ كَانَ يَكْفِي دُونَ ذَلِكَ ابْنُ أَذْهَمَا
وَكَانَ يَرَى الدُّنْيَا صَغِيرًا عَظِيمُهَا وَكَانَ لِحَقِّ اللَّهِ فِيهَا مَعْظَمَا
أَمَاتَ الْهَوَى حَتَّى تَجَنَّبَهُ الْهَوَى كَمَا اجْتَنَبَ الْجَانِي الدَّمَ الطَّالِبَ الدَّمَ
وَاللَّحْمَ سُلْطَانًا عَلَى الْجَهْلِ عِنْدَهُ فَمَا يَسْتَطِيعُ الْجَهْلُ أَنْ يَتَرَمَّرَ مَا (٢)
وَأَكْثَرَ مَا تَلْقَاهُ فِي الْقَوْمِ صَامِتًا وَإِنْ قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ وَأَحْكَمَا
يُرَى مُسْتَكِينًا خَاضِعًا مُتَوَاضِعًا وَلَيْثًا إِذَا لَاقَى الْكُتَيْبَةَ ضَيْغَمَا

(٢) يترمرم : لا يتحرك للكلام .

(١) القلوص من النوق : الشابة .

على الجَدَثِ الغَربِيِّ من آلِ وائلٍ سلامٌ وبرٌّ ، ما أبرَّ وأكرمًا^(١)
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كنانة يُصنِّق قلبه وعقله
للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمنًا بأنه الغاية العليا
التي ينبغي أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ،
وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

محمود^(٢) الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً
ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان في فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ
نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفي أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواريه
وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحداً ، وكانت جاريتُه سكن من بينهن من أحسن قربانها
وجهًا ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فلكت عليه لُبَّه وقلبه ، وحدث
أن رقت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفر لها خفض العيش عند
غيره ، وتنافس الناس في اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم ،
فقال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى
أختار عيشة الفقر معك ، فرق لها وحرَّرها وأصدقها داره ، وكانت كل ما يملك .
ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللاتي كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض
له في إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها في ميراثه بخمسة
آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير
المؤمنين إذا كانت الخلفاء تترتبص بلداتها الموايرث فسنشترى بأرخص مما اشتريت .
وأهل العصر العباسي الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً
مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب
الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغي أن لا يقترف إثمًا ولا يرتكب
معصية ، وإلا أوثقت ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحري

بعدها والعمد الفريد ٢٢٨/١ ، ٢٨٥/٢ ،
١٧٩/٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ وما بعدها ،
٤٠٤/٦ وفوات الوفيات ٢٨٥/٢ وعيون
الأخبار ٥٣/٣ .

(١) الحديث : القبر .
(٢) انظر في محمود وأخباره وأشعاره تاريخ
بغداد ٨٧/١٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز
ص ٣٦٧ ، ٤٢٢ والبيان والتبيين ١٩٧/٣ وما

بمن ألهته الدنيا ، وتراكت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل في جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا ترنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجِنَانِ بها وفوزَ العابدِ
ونسبتَ أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنوبٍ واحدٍ
لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجاني الذنوب والآثام حتى يكون
حقاً مطيعاً لربه ، وهى طاعة لاتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لاتم محبته
عجة صحيحة إلا إذا ألحَّ الإنسان في التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً
المعاصى وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعاً إلى الله متبتلاً له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّه هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كنت تضر حُبَّه لأطعته إن المحبُّ لمن أحبُّ مُطيع
في كل يومٍ يَبْتَلِيكَ بنعمةٍ منه وأنت لشكرٍ ذاك مُضِيع
وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة
وراحة ، بل تفاؤلاً وأمناً ، فلا يخشى شيئاً ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل
ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَّرُ اللهُ كائناً حِينَ يُقْضَى وَرُودُهُ
قد مضى فيك عِلْمُهُ وانتهى ما يريدُه

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من
الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع
الوصول إليه قبل موعده المقدور وأو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه
وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصبحُ من خوف العواقب آمنة
وترضى بعرفٍ (١) وإن كان مُشركاً ضَمِيناً ولا ترضى بربِّك ضامناً

(١) العراف : المنجم والناظر في الند .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفيُّ بعهدِهِ فلم يُرْضَ والإنسان فيه عجائبُ
علمٌ بأنَّ الله موفٍ بوعدِهِ وفي قلبه شكٌ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أداه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عند الله وما ادَّخره له في يومه وغده ، وأن يُقْلَع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لا يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بخذا فيراها ، بل إن شدة الطمع تؤدي بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ، والغنى الحقيقي هو غنى النفس القانع لا غنى الثراء الجشع ، وفي ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك المومِرُ المُمعِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإن كان مُقِلاً فهو المُكثِرُ
الفقرُ في النفس وفيها الغنى وفي غنى النفس الغنى الأكبر

ويكثر محمود من تفرغ غنى المال فقير النفس ، مصوراً جشعه في جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه في طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذي لا يقف عند حد ، إذ فتنته عن نفسه وعن دينه وعن ربه . وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربه وهو قد استأثر بقلوبهم وعواظهم وأهوائهم وملك عليهم كل شيء من أمرهم ، يقول :

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلُّوا وله حجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثريا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماً يقول ألا تبيهاً للغنى الذي يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التي يعيشها الزهاد ، غير ملتزمين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ، ويكفي فقر الزهاد سمو أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر ، بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصي
ومن ورائها أبواب سقر ، وفي ذلك يقول هذه الأبيات التي أنشدناها في الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تزدجرُ عيبُ الغنى أكثر لو تعتبرُ
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صحَّ منك النظرُ
أنك تعصي كى تنال الغنى وليس تعصي الله كى تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل
الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرع
بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها همٌّ تلو همٌّ
وأن كل شيء فيها إلى فناء ، يقول :

يمثلُ ذو اللبِّ في نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلتْ بَغْتَةً لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً
رأى الهمَّ يفضى إلى آخره فصيرَ آخره أولاً
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدته صروفُ الزمان ببعض مصائبه أغولاً
ولو قدَّم الحزمَ في أمره لعلمه الصبرَ عند البلاء (١)

وموقف سادس هو اتخاذ من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد
خلال البياض كان حرباً بالإنسان أن يقلع عن غيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت
أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكى ويتفجع على نفسه ،
فالحياة توشك أن تنقضى ويوشك ظلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر
عن الأفراد والأمم ، يقول :

بكيتَ لقرْب الأجلِ وبعُد فوات الأملِ

(١) البلاء : مقصور البلاء .

ووافدٍ شَيْبٍ طَرَا يَعْتَبِرُ شَبَابٍ رَحَلُ
 شَبَابٌ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ
 طَوَاكُ بِشَيْرُ الْبِقَاءِ وَحَلُّ بِشِيرِ الْأَجَلِ
 طَوَى صَاحِبٌ صَاحِبًا كَذَاكَ اخْتِلَافُ الدُّوَلِ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإمامة بالإساءة إذ يجد في ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهي خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله : (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به وأئن صبرتم لحو خير للصابرين) وقوله : (فن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البرّ والمحبة في قلوب المسلمين بعفوبعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود في تصوير عفو عن بعض ظالميه قائلا :

إِنِّي وَهَبْتُ لظَلْمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمٍ
 وَرَأَيْتُهُ أَسْدَى إِلَيَّ يَدًا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
 رَجَعْتُ إِسَاعَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي إِلَى مِضَاعَفِ الْغَنَمِ
 وَغَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَغَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
 وَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمَسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
 مَا زَالَ يظلمني وَأَرْحَمُهُ حَتَّى رَثَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلي وروحي لا ينضب ، فهو تارة يرغب في محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ وينكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حائثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفاني والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى في حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

شعراء الاعتزال

تحدثنا في الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية في هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليتمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملثوا مساجد البصرة بجدالهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستألو كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسان والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استألو الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم في أن القرآن مخلوق عقيدةً رسمية للدولة. وكانوا — كما أسلفنا — يعلنون النظر العقلي إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتز العقل — كما مرَّ بنا في الفصل الرابع — بهالة قدسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدَّاهم ذلك إلى البحث في العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضاً بين الله والطبيعة، ففيها علل ثانوية فعالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثَّه حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلهاً واحداً خالقاً حكماً ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة في الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا في هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك في الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارىء بأرائهم ومذاهبهم في كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يبقوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادئ الموجودات والجسمانيات والروحانيات التي وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات في الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوّل الاعتزال في هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلاً ما يزال يرفد الفكر العربي بدرره وجواهره ، وتحوّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطيرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا في مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون في الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث في الطبيعة ، وكثيراً ما يردون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا في فاتحة هذا العصر صفوان الأنصاري تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلخاده ونادى في الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالي إبليس على آدم معتدراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولفصفوان في تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلًا ويتحدث عن أتباعه وذبيّهم عن الدين وحرّماته وما أوتوا من الفصاحة واللدن في الخصومة ، وكيف يضربون في أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سياتهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفي أستاذهم يقول :

تَلَقَّبَ بِالغَزَّالِ وَاحِدٌ عَصْرُهُ فَمَنْ لِلبَيْتَامِ وَالقَبِيلِ المَكَاثِرِ (١)
وَمَنْ لِحَرُورِيٍّ وَآخَرَ رَافِضِيٍّ وَآخَرَ مُرْجِيٍّ وَآخَرَ جَائِرِيٍّ
وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْكَارٍ مُنْكَرِيٍّ وَتَحْصِينَ دِينَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ كَافِرِيٍّ
لَهُ خَلْفٌ شَعْبِ الصِّينِ فِي كُلِّ تُغْرَةٍ إِلَى سُوسِهَا الْأَقْصَى وَخَلْفَ الْبَرَابِرِ

ليصرف صدقته إليهن . وانظر في الآيات البيان والتبيين ٢٥/١ وما بعدها .

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين ، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتنفقات من النساء

رجالاً دعاة لا يفُلُّ عَزِيحَهُمْ تَهَكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكِرٍ
وأوتادُ أرضِ الله في كلِّ بلدةٍ وموضعٍ فُتِّيَهاها وعلمِ التشاَجُرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له في ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس في رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه في الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك دالته التي أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب في بيان فضائل الأرض ، بادئاً بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف في الحجارة والزند ، ثم يفيض في بيان طرائفها المبتوثة في البحار من لآيء وغير لآيء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى في الجبال والحِجارِ وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله في ذلك (١) :

زعمتَ بَيانَ النارِ أكرمُ عُضْراً
وتُخَلِّقُ في أرحامها وأرومها
وفي القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعُ
وفي قُلَلِ الأَجْبالِ خلفِ مقطمٍ
وفي الحرَّةِ الرِّجْلاءِ تُلقَى معادنُ
من الذهبِ الإبريزِ والفضةِ التي
وكلِّ فِلِزٍّ من نحاسٍ وأَنْكٍ
وكلِّ يواقيتِ الأنامِ وحليها

وفي الأرضِ تَحْيَا بالحجارةِ والزَّندِ
أعاجيبُ لا تُحصَى بخطِّ ولا عَقْدِ (٢)
من اللواؤِ المكنونِ والعنبرِ الوَرْدِ (٣)
زبرجدُ أملاكِ الوري ساعةَ الحَشْدِ (٤)
لهنَّ مغاراتٌ تَبْجَسُ بالنَّقْدِ (٥)
تروقُ وتُضْبِي ذا القناعةِ والزُّهدِ
ومن زئبقِ حَيٍّ ونوشاذِرِ يُسْدِي (٦)
من الأرضِ والأحجارِ فاخرةِ المجدِ

(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة .
الرجلاء : الوعة الحشنة . تبجس : تنفجر .
(٦) أنك : رصاص . نوشاذر بالذال والذال :
حجر أبيض صاف كالبلور .

(١) البيان والتبيين ٢٧/١ .
(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة
إلى أسوان على الشاطئ الشرقي للنيل .

وفيهما مقامُ الخَلِّ والرُّكْنُ والصَّنْفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلْدِ
 ويأخذ صفوان بعد ذلك في بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردُّ
 آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع
 الصحابة لتركهم بيعة علي وطعن في علي لقبوله التحكيم ولأنه قعد في عهد الخلفاء
 الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى
 شخص . ويظهر أيضاً أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان وماني عن النور والظلمة
 وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلي الناعظية وأبي منصور العجلي
 وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أَتَجْعَلُ عَمْرًا وَالنَّطَاسِيَّ وَاصِلًا كَأَتْبَاعِ دَيْصَانَ وَهُمْ قُمُشُ الْمَدِّ (١)
 فَيَا ابْنَ حَلِيفِ الطُّيْنِ وَاللُّوْمِ وَالْعَمَى وَأَبْعَدَ خَلْقِي اللَّهَ مِنْ طُرُقِ الرَّشْدِ (٢)
 أَتَهْجُو أَبَا بَكْرٍ وَتَخْلَعُ بَعْدَهُ عَلِيًّا وَتَعْزُو كُلَّ ذَلِكَ إِلَى بُرْدِ (٣)
 كَأَنَّكَ غَضِبَانٌ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَطَالِبُ ذَخْلٍ لَا يَبِيْتُ عَلَى حَقْدِ
 أَتَجْعَلُ لَيْلِي النَّاعِظِيَّةَ نِحْلَةً وَكُلَّ عَرِيْقٍ فِي التَّنَاسُخِ وَالرَّدِّ (٤)

وقد خلاص بشار بعد ذلك للمذاهب المحوسية وعبادة إلهي النور والظلمة . ولم
 يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على
 بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يشبوا ردوده . وسرى
 بشر بن المعتز يسير على هديه في هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذي تلقاه بأخرة
 من هذا العصر ، وقد أنشد له القالي قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضي
 أحد متكلمي الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه في صورة إنسان
 وله نفس الخواص الخمس ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وله يقول العطوى
 في بعض رَدِّهِ (٤) :

جَلَّ رَبُّ الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ عَنِ صِفَاتِ الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ

(٣) ذحل : ثأر . لا يبيت على حقد : يريد

أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمال القالي ٢/٢٣٦ .

(١) قمش : آراذل .

(٢) يشير إلى حرقة أبيه يرد وأنه كان طياناً

يضرب اللبن .

جلَّ رَبِّيَ عَنْ كُلِّ مَا اكْتَنَفْتَهُ لِحَظَاتِ الْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ
 بَرِيَّ اللَّهِ مِنْ هِشَامٍ وَمَنْ قَالَ فِي اللَّهِ مِثْلَ قَوْلِ هِشَامٍ
 قُلْ لِمَنْ قَالَ قَوْلَهُ وَرَأَاهُ خَيْرَ مُسْتَرَشِدٍ وَخَيْرِ إِمَامٍ
 لَمْ أَنْكَرْتَ قَوْلَ مَنْ عَبْدِ الشَّمِّ سَ وَصَلَّى لِلْأَنْجُمِ الْأَعْلَامِ
 مَا الدَّلِيلُ الْمَبِينُ عَنْ حَدِّثِ الْعَا لَمْ أَفْصَحْ بِهِ لَدَى الْأَقْوَامِ
 لَا دَلِيلٌ فَلَا تَرْمُهُ وَقَدْ قُدِّمَتْ كَبَعْضِ الْأَنَامِ رَبُّ الْأَنَامِ
 لَمْ تُرِدْ غَيْرَ قِدْمَةِ الْمَخْلُوقِ فَاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعُ مَنَاقِضَاتِ الْكَلَامِ

وواضح أن العطوي يرى في التشبيه على الذات الإلهية تعطيلاً للألوهية ، فالله بنص القرآن ليس كمثل شئء وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم ، واو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديماً مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حرباً عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحدث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقته قائمة في بنيته وتركيبه .

وكان العطوي ينظم في أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط حبيباتها ، وفي ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يسبق إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه ونحف شعره على كل لسان ورؤي واستعمله الكتاب واحتدوا معانيه وجعلوه إماماً » . وقد أنشد له أبو الفرج في أغانيه طائفة من الأشعار في أغراض مختلفة ، وهي تصور كيف كان يطلب الإطراف في المعنى والخيال من مثل قوله يرثي أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة في عصره ومقدّم مهم عند المعتصم والواثق^(١) :

أَحْنَطُهُ يَا نَصْرُ بِالْكَافُورِ وَزَفَنَتَهُ لِلْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ^(٢)

(١) الأغاني ٢٠/٥٨ .

(٢) أحنطه : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حنطته فيضوع أفقُ منازلٍ وقبور^(١)
وقوله في رثائه أيضاً^(٢) :

وليس نسيم المسك رياً حنوطه ولكنه ذلك الثناء المخلف^(٣)
وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله في وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس
أشعار كثيرة تقع فيها على المعاني النادرة من مثل قوله :^(٤)

فكم قالوا تمنّ فقلت كأس يطوف بها قضيبٌ من كشيبي
وندمانٌ تساقطني حديثاً كلحظ الحبّ أو غصّ الرقيب
وعلى هذا النحو كان العطوى يتأق لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق
الأخيلة والأفكار حتى يبهز معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشيء من
التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماءهم في هذا العصر وهم العتّابي
وبشر بن المعتز والنظام .

العتّابي^(٥)

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد
أصحاب المعلقات السبع ، وولد ونشأ في قنّسرين بالشام ، ثم سكن الرقة بالموصل ،
وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شغف
بالمعتزلة والاعتزال ، كما شغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من
جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرّ وخراسان ، ليتزود منها
بكنوز الأدب الفارسي ، ومرّ بنا في الفصل الرابع لإكبابه على هذه الكتب ونسخه

والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء
٢٦/١٧ ومروج الذهب للمسعودي ٣/٣٣٧
وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشياري ص
٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفورص ص ٨٧
وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/٤٨٨
والفرج بعد الشدة للتوحي ٢/١١٩ والنجوم
الزاهرة لابن قنرى بردي ٢/١٨٦ .

(١) يضوع : يفوح .
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٩/٢٠ .
(٣) ربا : شذى ورائحة .
(٤) أغاني ٥٩/٢٠ .
(٥) انظر في العتّابي وأخباره وأشعاره ابن المعتز
ص ٢٦١ والشعر والشعراء ص ٨٣٩ والبيان والتبيين
١١/١٢٠ ، ٢٢٠ ، ٥٣/٣ ، ٥٦/٤ .
والحيوان ٦٢/٣ ، ٤٨٣ والأغاني ١٣/١٠٩ .

وكاتبها جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتّابي . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحدّوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولّدين كنجو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما ، وكان العتّابي يحتذى حدو بشار في البديع » . ويقول في موضع آخر من بيانه : « العتّابي يذهب شعره في البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصوير فحسب ، بل يقصد أيضاً المعاني الطريفة النادرة التي أتاحت للعتّابي ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها في معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب . وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة في الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسب على هذه الشاكلة :

ماذا شجّاك بِحَوَارِينِ مِنْ طَلَلٍ وَدِمْنَةٍ كَشَفْتِ عَنْهَا الْأَعَاصِيرُ^(١)
شجّاك حتّى ضميرُ القلبِ مُشْتَرِكٌ وَالعَيْنُ لِنَسَانِهَا بِالْمَاءِ مَغْمُورُ^(٢)
فِي نَاطِرِيَّ انْقِبَاضٌ عَنِ جَفُونِهَا وَفِي الْجَفُونِ عَنِ الْأَمَاقِ تَقْصِيرُ
لَبِستَ أَرْدِيَةَ النُّوَارِ مِنْ طَلَلٍ وَزِأَتَ أَحْضَرَ تَعْلُوكَ الْأَزَاهِيرِ^(٣)

وواضح ما في هذا المطلع من دقة في التفكير ، فهو يصور شجوا نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويبتلى في هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح في البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضاً بدقة الحسّ على نحو ما نرى في دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسواً

(١) حواريين : من قرى حلب . والمدنّة :
(٢) شترك : مهموم .
(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله في الرشيد :

مستنبط عزمات القلب من فكرٍ ما بينهن وبين الله معمر
فمت المدايح إلا أن أنفسنا مستنطقات بما تحوى الضائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهير
وهو دائماً في مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته
وبين حيافته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمام له كف يضم بنائها عصا الدين ممنوعاً من البري عودها
وعين محيط بالبرية طرفها سواء عليه قربها وبعيدها
وأصمع يقظان يبيت مناجياً له في الحشا مستودعات يكيدها
سميع إذا ناداه في قعر كربة مناد كفته دعوة لا يعيدها
ونحس في هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف
في تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى في معارض مختلفة ،
يرفده في ذلك عقله الاعتزالي الخصب الذي لا يزال يثير في نفسه الخواطر التي
تبهر السامعين من مثل قوله في الرشيد ، معيدا للمعاني السابقة في هيات جديدة :

رعى أمة الإسلام فهو إمامها وأدى إليها الحق فهو أمينها
ويستنتج العقماء حتى كأنما تغلغل في حيث استقر جنيهاً^(٢)
وما كل موصوف له الحق يهتدى ولا كل من أم الصوى يستبينها^(٣)
مقيم بمستن العلاء حيث تلتقى طوارف أبكار الخطوب وعونها^(٤)
وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الخفيف وما منه
في حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته في حلّ المشاكل

(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستئان وهو سرعة
العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع
عوان ضد البكر .

(١) أصمع : يقظ القلب فظن حاذق .
يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة المرة . يستنتج :
يستولا .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله في الرشيد :

مستنبط عزمات القلب من فكرٍ ما بينهن وبين الله معورٌ
فَتُ المذائح إلا أن أنفسنا مستنطقات عما تحوى الضمائر
ماذا عسى مادحٌ يشئ عليك وقد ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهيرٌ
وهو دائماً في مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحكته
وبين حياطه للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌ يَضُمُ بِنَانُهَا عَصَا الدينِ ممنوعاً من البرِّي عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبرية طَرْفُها سواءٌ عليه قُرْبُها وبعيدُها
وأصمَعٌ يقظانٌ يبيت مناجياً له في الحثا مستودعاتٌ يكيدُها
سميعٌ إذا ناداه في قعر كُرْبَةٍ منادٍ كَفْتَهُ دعوةٌ لا يعيدُها
ونحس في هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف
في تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى في معارض مختلفة ،
يرفده في ذلك عقله الاعتزالي الخصب الذي لا يزال يثير في نفسه الخواطر التي
تبهر السامعين من مثل قوله في الرشيد ، معيدا للمعاني السابقة في هيات جديدة :

رعى أمة الإسلام فهو إمامها وأدى إليها الحق فهو أمينها
ويستنتج العقماء حتى كأنما تغلغل في حيث استقر جَنِينُها^(١)
وما كلٌ موصوفٍ له الحق مهتدي ولا كلٌ من أمِّ الصوى يستبينها^(٢)
مقيمٌ بمستننِّ العُلا حيث تلتقى طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونُها^(٣)
وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الخفيف وما سنه
في حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فظنته وحكته في حلّ المشاكل

(١) أصمَعٌ : يقظ القلب فطن حاذق .
يكيدُها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العمرة . يستنتج : يستولذ .
(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستئان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحدیثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكنن^١ في أعماقها وأرحامها من حلول خفية ، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب . وواضح ما يعننى به العتّابى من دقة فى معانيه وطرافة ، ويروى أنه دخل سرا مع المتظلمين إلى الرشيد فى بعض سخطاته عليه ، فأنشده :

أخِضْنِي الْمَقَامَ الْعَمَرَ إِنْ كَانَ غَرْنِي سَنَا خُلْبٍ أَوْ زَلَّتِ الْقَدَمَانِ^(١)
أَتَرَكْنِي جَذَبَ الْمَعِيشَةَ مُقْتَرًا وَكَفَّاكَ مِنْ مَاءِ النَّدى تَكْفَانِ^(٢)
وَتَجَعَلَنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَمَا بَلَلْتِ يَمِينِي بِالنَّدَى وَلِسَانِي

فأعجب الرشيد قوله ، وأجازه جائزة سنية . وكان جعفر البرمكى أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد فى موجدة له أخرى عليه ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، فقال بملحه :

مَا زِلْتُ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ مَطْرَحًا قَدْ ضَاقَ عَنِّي فَمَسِيحُ الْأَرْضِ مِنْ جِبَلِي^(٣)
وَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلَطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

وهذا البحث عن المعانى النادرة أشاع فى شعر العتابى ظاهرة لم تكن مألوفاً هى قِصْرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة فى كثير من الأحيان ، وكأنما يتشبه فى ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التى كان يعكف عليها والتى يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع ، وما يصور ذلك عنده أجمل تصوير ما يروى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوماً فأنشده مادحاً :

حُسْنُ ظَنِّي وَحُسْنُ مَا عَوَّدَ اللَّاءُ هُ سِوَايَ مِنْكَ الْغَدَاةُ أَتَى بِي
أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْ حُسْنِ نِ يَقِينِ حَدَا إِلَيْكَ رِكَابِي

ثم دخل عليه من الغد ، فأنشده البيتين التالين اللذين أنشدناهما فى الفصل السادس :

تَكْفَانُ : تَهْلَانُ وَتَسِيلَانُ .

(٣) غَمْرَاتُ : شَدَائِدُ .

(١) الْمَقَامُ الْعَمَرُ : الْمَقَامُ الشَّدِيدُ . سَنَا خُلْبٍ :

ضَوْءُ الْبَرْقِ الَّذِي لَا يَعْقِبُهُ مَطَرٌ .

(٢) مَقْتَرًا : ضَيْقُ الرَّزْقِ . النَّدى : الْجُودُ .

وَدُّكَ يَكْفِينِيكَ فِي حَاجَتِي وَرُؤْيِي كَافِيَةٌ عَنِ سُؤَالِ
وَكَيْفَ أَخْشَى الْفَقْرَ مَا عَشْتَنِي لِي وَإِنَّمَا كَفَّأَكَ لِي بَيْتَ مَالٍ
ثُمَّ دَخَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ، فَأَنْشَدَهُ :

بِهَيْجَاتُ السِّيَابِ يُخْلِقُهَا اللَّهُ رُ وَثُوبُ الشَّنَاءِ غَضُّ جَدِيدُ
فَاكْتَسَنِي مَا يَبِيدُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فَيَكْسُوكَ اللَّهُ مَا لَا يَبِيدُ
وَوَاضِحٌ أَنَّهُ حَوْلَ قَصِيدَةِ الْمَدِيحِ إِلَى بَيْتَيْنِ قَصِيرَيْنِ ، يَحْمَلَانِ مَعْنَى طَرِيفًا ،
وَهُوَ مَعْنَى لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ التَّدْبِيرِ وَبَعْدَ طَوْلِ الرُّوِيَةِ وَبَعْدَ النَّظَرِ وَطَوْلِ التَّفَكِيرِ ،
بَلْ بَعْدَ التَّوَقُّفِ وَطَوْلِ التَّنْقِيبِ . وَعَلَى نَحْوِ مَا يَلْقَانَا ذَلِكَ فِي مَدِيحِهِ يَلْقَانَا فِي عَتَابِهِ
مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ :

رَحَلَ الرَّجَاءُ إِلَيْكَ مُغْتَرِبًا حُسِّدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
رَدَّتْ إِلَيْكَ نِدَامَتِي أَمَلِي وَثَنِي إِلَيْكَ عِنَانَهُ شُكْرِي
وَجَعَلْتُ عَتَبَكَ عَتَبَ مَوْعِظَةٍ وَرَجَاءَ عَفْوِكَ مُتْتَهِيَ عُذْرِي

وَلَهُ غَزَلِيَّاتٌ تُطَبِّعُ بِنَفْسِ الطَّوَابِعِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ، فَهُوَ مَا يَزَالُ يَحَاوِلُ فِيهَا
اسْتِنْبَاطَ الْمَعَانِي وَالصُّورِ الدَّقِيقَةِ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِهِ :

رُسُلُ الضَّمِيرِ إِلَيْكَ تَتَرَى بِالشُّوقِ ظَالِمَةً وَحَسْرَتِي^(١)
مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَكَ يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ مَجْرِي
إِنَّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدْعُ مِنِّي سِوَى عَظْمِ مُبْرَى^(٢)
وَمَدَامِعِ عَبْرِي عَلَى كَبَدِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرِي^(٣)

وَأَدَاءَهُ طَوْلَ نَظَرِهِ وَفَحْصَهُ لِلْمَعَانِي إِلَى أَنْ يَجْرِدَهَا وَيَجْسِمُهَا أَحْيَانًا ، وَأَحْيَانًا
أُخْرَى يَتَعَمَّقُ فِيهَا وَيَتَغَالُغُ إِلَى لُبِّهَا ، مُسْتَخْرِجًا بَعْضَ الصُّورِ أَوْ بَعْضَ الْحِكْمِ ،
مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ مَجْسَدًا لِشُكْرِهِ :

(١) ظالمة : من الظلوع وهو العرج من كثرة السير . حسرتي : متعبة .
(٢) مبري : مهزول .
(٣) حري : محترقة .

فلو كان للشكر شَخْصٌ يَبِينُ إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاطِرُ
لَمَلَأْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ لِتَعْلَمَ أُنَى امْرُؤٍ شَاكِرٍ

وقوله في ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لَوْمْ يُعِيدُكَ مِنْ سُوءِ تُقَارِفُهُ أَبْقَى لِمَرْضُكَ مِنْ قَوْلٍ يُدَاجِيكَ^(١)
وَقَدْ رَمَى بِكَ فِي تَيْهَاءِ مَهْلِكَةٍ مِنْ بَاتِ يَكْتُمُكَ الْعَيْبَ الَّذِي فِيكَ^(٢)

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محلا لها تحليلا بديعاً ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميمة ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذي وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعي نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنسى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وَكَمْ نِعْمَةٍ آتَاكَهَا اللَّهُ جَزَلَةٍ مَبْرَأَةٍ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ يَذِيمُهَا^(٣)
فَسَلَّطْتَ أَخْلَاقًا عَلَيْهَا ذَمِيمَةً تَعَاوَرَتْهَا حَتَّى تَفْرِي أَدِيمُهَا^(٤)
وَكُنْتُ امْرَأَةً لَوْ شِئْتَ أَنْ تَبْلُغَ الْمَدَى بَلَغْتَ بِأَدْنَى نِعْمَةٍ تَسْتَدِيمُهَا
وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَعْسَرُ مَحْمَلًا مِنَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلد عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالا لذلك متلفاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه في سنة ثمان ومائتين .

(٣) يذيمها : يميها .

(٤) تفرى : تقطع .

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك : يناقك .

(٢) تيهاء : فلاة مضلة .

بشر^(١) بن المعتز

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفي الأصل ولعله تحول منها أولاً إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرقة له ، مثله في ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضاً مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبراهمة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكي ، وربما كان السبب الحقيقي في توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البراهمة يتشيعون سرّاً ، ففسحوا له في مجالسهم ، ونصّ كثير من على هذه النزعة ، يقول التوبختي إنه كان يوافق الشيعة في الحكم على عليّ بأنه كان مصيباً في حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضاً كان مصيباً في قبوله التحكيم . ويقول ابن أبي الحديد : « كان بشر بن المعتز من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علي عليه السلام (أى على أبي بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفي كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتاً من أرجوزة يقول في بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على في صيفين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا في الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التي تكونت حول آرائه ، والتي سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التي كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضاً أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذي يجب عليه

ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبعة الحلبي) ٣/٣١٦ والملل والنحل للشهرستاني ص ٤٤ والمواقف للإيجي (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحي الإسلام ٣/١٤١ والمذنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١ .

(١) انظر في بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٤/٢٣٩ و٦/٦٢ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها وآمال المرتضى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٢٣٢ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلي والأنساب للسماني في البشري وفرق الشيعة للتوبختي

حقاً هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلي نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالاً بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا في الفصل الرابع أبياته التي يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التي تجعل الإنسان يميز الشر من الخير، ويدرك الحسن فيعتنقه والقيح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم في فهرسته .

وكان حسن الجدل قوی الحجّة، وهو يُعدّ في الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه في بيانه صحيفة طويلة في البلاغة ، تجعله واضح أصولها الأولى في صورتها الدقيقة ، وقد حللناها في كتابنا « البلاغة (١) : تطور وتاريخ » . وهي تشهد له ببصره النافذ في معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضاً بارعاً في نظمه ، غير أنه لم ينظمه في الأغراض الغنائية التي تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه في الاتجاه التعليمي الذي كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله في صنوف خلقه ، مما يمكن أن يدخل في التاريخ الطبيعي ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى منه على الحمّس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شيء من محمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التي أنشدها له صاحب الانتصار في التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جهم مقتبسة هي الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

لِإِمَامِهِمْ جَهَنَّمُ وَمَا لَجَهَنَّمُ وَصَحْبِ عَمْرٍو ذِي التَّقَى وَالْعِلْمِ
وَمَعْرُوفٍ أَنْ جَهْمَا كَانَ يُؤْمِنُ بِالْجِبْرِ وَيُنْبِي اسْتَطَاعَةَ الْإِنْسَانِ وَحَرِيَّةَ إِرَادَتِهِ
مَا كَانَ يَعْتَنِقُهُ الْمَعْتَزِلَةَ وَأَسَانِدَتِهِمْ أَمْثَالُ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ وَوَأَصْلُ بْنُ عَطَاءٍ ،
وَرَوَى الْجَلَّاحُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ حَيَوَانِهِ مَقْطُوعَةً مِنْ إِحْدَى أَرَاغِيئِهِ ، وَرَبَّمَا
كَانَتْ هِيَ الْآخَرَى مِنَ الْأَرْجُوزَةِ السَّالِفَةِ ، وَكَذَلِكَ مَا رَوَى فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ
مَنْ تَفْضِيلُهُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الْخَوَارِجِ ، إِذْ يَقُولُ :

مَا كَانَ فِي أَسْلَافِهِمْ أَبُو الْحَسَنِ وَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا أَهْلُ السُّنَنِ
غُرٌّ مَصَابِيحُ الدُّجَى مَنَاجِبُ أَوْلَئِكَ الْأَعْلَامُ لَا الْأَعَارِبُ
كَمَثَلِ حُرْقُوصٍ وَمِنْ حُرْقُوصٍ فَفَقَعَةُ قَاعٍ حَوْلَهَا قَصَبٌ (١)
لَيْسَ مِنَ الْحَنْظَلِ يُشْتَارُ الْعَسَلُ وَلَا مِنَ الْبَحُورِ يُضْطَادُ الْوَرَكُ (٢)
هِيَهَاتَ مَا سَافَلَةٌ كَعَالِيَّةٍ مَا مَعْدُنُ الْحِكْمَةِ أَهْلُ الْبَادِيَةِ

وَرَوَى لَهُ الْجَلَّاحُ فِي الْحَيَوَانِ قَصِيدَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ قَدِمَ لهُمَا بِقَوْلِهِ : « أَوَّلُ
مَا نَبْدَأُ قَبْلَ ذِكْرِ الْحَشْرَاتِ وَأَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ بِشَعْرِ بَشَرِ بْنِ الْمَعْتَمِرِ
فَإِنَّ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ قَصِيدَتَيْنِ قَدْ جُمِعَ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِبِ وَالْفَرَائِدِ ، وَنَبَّهَ بِهَذَا
عَلَى وَجْهِهِ كَثِيرَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَجِيبَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْبَلِيغَةِ . . وَإِذَا قَسَمْنَا مَا عِنْدَنَا
فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ عَلَى بَيْوتِ هَذَيْنِ الشَّعْرَيْنِ وَقَعَ ذِكْرُهُمَا مَصْنُوعًا فِيصِيرُ حَيْثُ
آتَى فِي الْأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ فِي الْحِفْظِ » . وَبَشَرٌ يَسْتَهْزِلُ الْقَصِيدَةَ الْأُولَى بِحَدِيثِهِ عَنْ
طَبَاعِ الْإِنْسَانِ وَمَا رَكِبَ فِيهِ مِنَ الطَّمَعِ الَّذِي يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى أَنْ يَتَوَاتَبُوا بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ تَوَاتَبَ الذَّنَابُ ، وَيَفِيضُ فِي وَصْفِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشْرَاتِ وَبَعْضُ الطَّيْرِ
وَبَيَانَ طَبَاعِهَا وَعَجَائِبِ خَلْقِهَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ تَحَوَّلَ إِلَى إِبَاضِيَّةِ
الْخَوَارِجِ وَرَافِضَةِ الشَّيْعَةِ مَنْ يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِ الْجَفْرِ ، وَهُوَ كِتَابُ يَزْعَمُونَ أَنَّهُ عِنْدَ
أُمَّتِهِمْ فِيهِ كُلُّ أَصْنَافِ الْعِلْمِ وَكُلُّ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَلَكَ مَعَ الرَّافِضَةِ

مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها .
(٢) يشتر : يستخرج . الورك : دابة
صحراوية كالضب .

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لعهد علي .
القصب : شجرتيت في أصله الكفاة وهي الفقع .
القاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع

والإباضية الحشوية ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه في القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وفي ذلك يقول :

لستُ إباضياً غيبياً ولا كرافضياً غره الجفراً
 كما يغرُّ الآلُ في سببٍ سَفَرًا فأوَدَى عنده السَّفَرُ^(١)
 لسنان الحشمو الجفاة الأولى عابوا الذي عابوا ولم يدروا
 لا تنجج الحكمةُ فيهم كما يَنْبُو عن الجِرْوَلَةِ القَطْرُ^(٢)
 أولئك الداءُ العُضالُ الذي أعيأ لديه الصَّابُ والمَقْرُ^(٣)

وفي هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السادس ، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو في القصيدة الثانية يتحدث أيضاً عن غرائب الخلق في أوابد الوحش والحشرات والطير السابح في الهواء ، مستنبطاً كثيراً من العظات ، ومنها بالعقل وساطع نوره الذي نكتشف به مثل هذه العجائب والعبء ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض في أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمرَ التقليدُ أحلامهم فناصروا القياسَ ذا السِّبْرِ
 فهو يأخذ عليهم أنهم بلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلي
 السديد الذي به تقاس الأشياء ويُسبَرُ ويُعرَفُ غورها ومقدار ما فيها من
 الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولاً في شعره التعليمي بالرد على
 خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الرباني حتى وافاه القدر في سنة عشر
 ومائتين .

ويقط .
 (٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

(١) الآل : السراب . السبب : الفلاة .
 السفر : جماعة المسافرين .
 (٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل

النظام^(١)

هو إبراهيم بن سيار بن هانيء ، ولد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الحرز في سوقها لأول حياته فلُقِّب بالنظام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوي أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذي ظنناه ، إذ نجدته يناظر ويحاور أهل الكلام في مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضح ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ . وهو ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عني به وبتثنيفه عناية كبيرة ، وهي عناية صادفت فيه عقلا خصيباً وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا في المناظرة وقطع الحصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا في ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقيه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس بينت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة في عصره ، وطارت شهرته في هذا الباب ، لإفحامه دائماً لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ في حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٤ والملل والنحل للشهرستاني
ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١
وانظر مروج الذهب للسعودي ٣/٢٨٧ وشرح
العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي)
ص ٢٢٦ . وضحي الإسلام ٣/١٠٦
وتاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بورص ٥٩ .

(١) انظر في النظام وأخباره وأشعاره فهارس
البيان والتبيين والحيوان الجاحظ وأمالى المرتضى
١/١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي
٦/٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن
المعز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الجياض
ومقالات الإسلاميين للأشعري ولسان الميزان
١/٦٧ وروضات الجنات للخوانساري ص ٤٢

وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة^(١) . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالي انذى نُسب إليه ، فتبعه - كما يقول ابن تغرى بردى - خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع في العامة ويدور على كل لسان . ومرت بنا في الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهي نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقد مزج في قوة بين كلام الفلاسفة وأفكار المعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلاح لعباده ، وقوله بنى الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، غير أن الله أكنن بعضها في بعض ، فأدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعنى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذي أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشي في الأخير إلى نقص الأصل الذي يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعييه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات في أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور في كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذاً إلى أغوار المعاني ، متصرفاً فيها تصرف الجاحظ الفطن ، وملاًئماً بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه في ذلك حسّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظرفِ يقصُرُ عنه منتهى الوصفِ

رَقَّ فلو بُزَّتْ سراييلُهُ عُلِّقَهُ الجَوْهُ من اللَّطْفِ (١)
يجرحه اللَّحْظُ بتكراره ويشتكى الإيماء بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف في الآيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذي يحتويه . وفي البيت الأخير مبالغة واضحة يستم بها مبالغة البيت الذي يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

توهمه طَرْفِي فَآلَمَ خَدَّهُ فكان مكان الوهم من نظري أثارُ
وصافحه قلبي فَآلَمَ كَفَّهُ فمن صَفَّحَ قلبي في أنامله عَقَرُ (٢)
ومرَّ بقلبي خاطراً فَجَرَحَتْهُ ولم أَرَ خَلْقاً قطُّ يجرحه الفِكْرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعظُفٍ يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ
وهو وهم بعيد لا يقع في عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون في تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذي كان يؤمن بأن الأعراض كامنة في الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة في نفسه وأن حركات النفس أجسام مسترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب في الآيات . ويستلهم رأيه في أن النور سائى عُلُوِي، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شيء عليه ، فيقول :

أفْرِغَ من نور سائى مصوِّراً في جسم إنسي
وافتقر الحسنُ إلى حُسْنِهِ فجلاً عن تحديد كيني
أبدعه الخالقُ واختارَهُ من مازج الأنوار عُلُوِي
فكلُّ من أغرق في وصفه أصبح منسوباً إلى العيِّ

وتختلط في الآيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديد

(٢) المقر: الجرح .

(١) بزت : نصبت وخلصت .

أو بعبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف في الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوليه يصف احتساءه للخمر من بعض الدنان :

ما زلت آخذ روح الزُّقِّ في لُطْفٍ وأستبيح دَمًا من غير مجروح
حتى انشيتُ ولى روحان في جسمدى والزُّقُّ مُطْرَحُ جسمٌ بلا روح
وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالي وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابه للبدن بأجزائه تشابك المائبة للورد ، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيمة . وله في تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذى كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًا بود :

حبي لعمرو جوهرٌ ثابتٌ وحبهُ لى عَرَضٌ زائلٌ
به جهاتى السمْتُ مشغولةٌ وهو إلى غيرى بها مائلٌ

وواضح تشبته بلغة المتكلمين وآرائهم فى الجودر والعرض والحيوات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذى يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوليه يمدح الأمين :

ألا ياخبرَ مَنْ رأتِ العيونَ نظيرُك لا يُحسُّ ولا يكونُ
وفضلك لا يُحدُّ ولا يجارى ولا تحوى حيازته الظنونُ
خلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ فأنتَ الفوقُ والثقلانِ دون
كأنَّ الملكَ لم يك قبلُ شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين

وهى مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبتتوا مثل هذه المبالغة فى المديح ، وهى مبالغة تغذت إليه من إغراقه فى الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء في السنة التي توفي فيها ، فقبل سنة إحدى وعشرين ومائتين
وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة .



شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسي كان يصدر في جمهوره عن روح
الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون في صدورهم
أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا في مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون
عنها فإنه انفصال في الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية
الحاكم التي تتطلبها الأمة والتي رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا في جوانب من
هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة في صدور
الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد
عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر في وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل
الشعراء فيه الخصال السيئة التي ينبغي أن يتطهر منها المجتمع ، سواء في الأفراد
العاديين أو في الحكام ، ولعل ذلك هو الذي كان يشيعه على جميع الألسنة .
وتخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة
الشظف وعبث الكفاف وما يطوى فيهما من زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون
من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما في المجتمع من هو ومواسم
للهو ، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور في شعر
الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من
حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجري على كل لسان ، وفي الأغاني
خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين في دجلة كانوا يتغنون في
نزهة للرشد بقطعة زاهدة لأبي العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها في غير هذا الموضوع وفيها
يقول (١) :

(١) أغاني ١٠٣/٤ وما بعدها .

سَيَصِيرُ المرءُ يوماً جَسَداً ما فيه رُوحٌ
كلنا في غَفَلَةٍ وال موتٌ يَغدو ويروحُ
لتموتنَّ وإن عمَّ رتَ ما عمَّر نُوحُ

ومرت بنا في ترجمة أبي العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعاً غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيئهما يعيشون في الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَن حوطم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويترى بعض التجار ثراء فاحشاً . وتجم في البؤس والمسغبة كثرة الشعب التي كانت لاتجد يداً تمتد إليها وتخدم نار الفقر والظنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقي الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكندية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدبائية التي كانت تنبث عندنا لأواخر القرن الماضي في المواسم والمولد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسي ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده في الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره (١) :

ليس إغلاقي لبابي أن لي فيه ما أخشى عليه السرِّقا
إنما أغلقه كي لا يرى سوءَ حالي مَن يجوب الطُّرِّقا
منزلُ أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سرِّقا
ومن الشعراء الذين عاشوا في ضنك وحرمان أبو المخضف وكان في أيام المأمون ، وكان يدور في بغداد يسأل الناس رغيفاً أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة في وصف الرغيف وكيف كان كلَّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكيسر اليابسة يتبدلون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله (٢) :

(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

(١) ابن المنذر ص ٣٧٧ .

دَعَّ عنكَ رَمَمَ الدِّيَارِ ودَعَّ صِفَاتِ القِضَارِ
 وعدُّ عن ذِكرِ قومٍ قد أَكثروا في العُقَارِ^(١)
 ودَعَّ صِفَاتِ الزنَانِيهِ ر في خِصُورِ العِذَارِي^(٢)
 وِصِفٌ رَغِيْفًا سَرِيًّا حَكْتُهُ شَمْسُ النِّهَارِ
 أو صِوْرَةٌ البِدرُ لما أَنَّهُ تَمَّ في الاسْتِدارِ
 فليس تَحْسِنُ إِلَّا في وَصْفِهِ أَشْعَارِي
 وذاك أَنِّي قَدِيمًا خَلَعْتُ فِيهِ عِذَارِي

فهو إنما يتدلته في الرغيف ويمتلئ به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه
 كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال ، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه .
 ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق
 ولذلك كان ينبغي أن نقف عنده قليلا .

أبو الشمقمق^(٣)

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى
 الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى
 قبيح شكله نحيب لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم
 إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح في وجهه يُغلق من دونه ،
 فعاش فقيراً محروماً إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من
 بعض زملائه الشعراء ، في الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد في أيام الرشيد
 والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ما جعله يهجو الفضل بن يحيى

وابن خلكان في ترجمة مزبه بن يزيد
 وكتاب الورقة ص ٦٣ والمقد الفريد ٣/٣٥ ،
 ٢١٥/٦ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست)
 وكتاب البغال للجاحظ والأغانى في ترجمة بشار
 بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجهمياري
 ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

(١) المقار: الحمر .
 (٢) الزنانيير : جمع زنار وهو خيط كانت
 تلفة الجوارز، على أوساطهن .
 (٣) انظر في كتاب أبي الشمقمق وأخباره
 وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد
 ١٤٦/١٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . ومن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد المشهور ممدوح مسلم بن الوليد ، ومالك بن علي الخزاعي أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بقتي العسكر ، ولعلمهم نخشوا معرة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أركان ، فيلقاه لقاء سيثاً ، ويتولاه بهجاء مرير ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظاً من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه ، ويسلمتهم بلسانه ، فيعطونه التزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيقاً ، ويزيده ضيقاً أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تفتحه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خاقمة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى فى المديح ، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضاً فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفو الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتى لئرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يحشاه خشية شديدة ، حتى ليرتب له فى كل ستة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تتم بشطور مقذعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعن هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوزاتٍ وتبينه فتحوا باب المدينة

إن بشار بن بُرِّدٍ تَنَسَّ أَعْمَى فِي سَفِينِهِ
 حَتَّى رَمَى لَهُ بِشَارٌ بِالْدِرَاهِمِ . وَذَكَرَ بِشَارٌ لِلصَّبِيَّانِ يَدُلُّ عَلَى شَعْبِيَّةِ أَبِي الشَّمْقَمَقِ
 وَأَنَّهُ كَانَ يَشْتَقُّ شَعْرَهُ مِنْ أَلْفَاظِ الْعَامَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ سَرْعَانَ مَا يَدُورُ عَلَى أَلْسِنَةِ
 الْعُلَمَاءِ . وَمِنْ طَرِيفِ هِجَاثِهِ قَوْلُهُ فِي بَخِيلٍ :

كُفَّاهُ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ قَدْ يَمِيسُ الْحَدَّادُ مِنْ فَتْحِهِ
 وَقَوْلُهُ فِي بَعْضِ الثَّقَلَاءِ :

أَسْمَجُ النَّاسِ جَمِيعاً كُلَّهُمْ كَذُّبَابٍ سَاقِطٍ فِي مَرَقَةٍ
 وَلَعَلَّ أَشْعَاراً لَهُ لَمْ تَمَسْ قُلُوبَ الشَّعْبِ كَمَا مَسَّتْهَا أَشْعَارُهُ الَّتِي صَوَّرَ فِيهَا فَقْرَهُ
 وَبُؤْسَهُ ، وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ إِخْوَانِهِ دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَرَأَى سُوءَ حَالِهِ ، فَأَرَادَ أَنْ
 يَخْفَفَ عَنْهُ مَا هُوَ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبَشِيرٌ أَبَا الشَّمْقَمَقِ فَإِنَّهُ رُوِيَ فِي بَعْضِ
 الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَرَبِينَ فِي الدُّنْيَا هُمُ الْكَاسُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ سَاحِرًا : إِنَّ كَانَ
 وَاللَّهِ مَا تَقُولُ حَقًّا لِأَنَّكَ بَرَّازًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَنَا فِي حَالٍ تَعَالَى إِلَا ه رَبِّي أَيَّ حَالٍ
 لَيْسَ لِي شَيْءٌ إِذَا قَبِي ل لِمَنْ ذَا ؟ قُلْتُ : ذَا لِي
 وَلَقَدْ أَهَزَلْتُ حَتَّى مَحَتِ الشَّمْسُ خَيَالِي
 وَلَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى حَلَّ أَكْلِي لِعِيَالِي

وَلَهُ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ يَصُورُ فِيهَا فَقْرَهُ وَإِقْلَالَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْتَنِي حَتَّى مَا يَكْسُو بِهِ
 السَّرِيرَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَتَاعِ شَيْئًا إِلَّا حَصِيرَةً وَبَعْضَ الْعِمَارِ
 وَالْأَطْمَارِ الْخَلْقَةَ ، يَقُولُ :

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ سَرِيرِي كُنْتَ تَرَحُّمَنِي اللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ تَلْبِيسٌ (١)
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا لِي فِيهِ شَابِكَةٌ إِلَّا الْحَصِيرَةُ وَالْأَطْمَارُ وَالْدَيْسُ (٢)

(١) يرید بالتلبیس ما یکسی به السریر من الخشب والملاط .
 (٢) الشابکة : ما یضم بعضه إلی بعض .
 الدیس : هو المعروف فی مصر باسم السار .

(١) يرید بالتلبیس ما یکسی به السریر من الخشب والملاط .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئاً ، بل يقعد به العُدم الذي تعودّه ويقعد به سوء البخت الذي يلازمه في حيلته وترحاله ، حتى يجفّ البحر الذي يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر في يده حصي وزجاجاً والماء العذب ملحاً لا يسوغ شرابه ، وفي ذلك يقول :

لو ركبت البحارَ صارتُ فجاجاً لا نرى في متونها أمواجاً
ولو آنى وضعتُ ياقوتةَ حمّ راء في راحتي لصارتُ زجاجاً
ولو آنى وردتُ عذباً قرأتاً عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو في الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة في بغداد التي كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هي في الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ	أنفعَ في البيت من الخُبزِ
والخُبزُ باللحمِ إذا نلته	فأنت في أمنٍ من التُرزِ ^(١)
وقد دنا الفِطْرُ وصبياننا	ليسوا بذى تمرٍ ولا أرزِ
كانت لهم عنزٌ فأودى بها	وأجدبوا من لبن العنزِ ^(٢)
فلو رأوا خُبزاً على شَاهِقِ	لأسرعوا للخبزِ بالجَمزِ ^(٣)
ولو أطاقوا القفزُ ما فاتهم	وكيف للجائع بالقفزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها بلحسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل لأنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحت عن غذائها ، ولا يبقى معه في البيت سوى السنور أو الهير ، وإنه ليكي

(٣) الجمز : القفز .

(١) الترز : الهلاك .

(٢) أودى بها : هلكت .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعود أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مأب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أبحرني البرُّ دُ كما تُجحرُ الكلابُ نُعالةً^(١)
 فى بُيوتٍ من النضارة قفراً ليس فيه إلا التوى والنخاله^(٢)
 فارقته الجرذان من قلة الخيِّ ر وطار الذبابُ نحو زباله^(٣)
 هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ حين لم يرتجبن منه بُلاله^(٤)
 وأقام السنورُ فيه بشرُّ يسأل الله ذا العلا والجلاله
 أن يرى فأرة فلم ير شيئاً ناكساً رأسه لطول الملاله
 قلت صبراً يا نازُ رأس السنأ نير وعَلَّته يحسن مقالَه^(٥)
 قال : لا صبر لي وكيف مقامى فى قفارٍ كمثل بيدٍ تبالَه^(٦)
 ثم ولئى كأنه شميخُ سوءٍ أخرجوه من محيسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما ينسب لصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لحن عصر المأمون منحول عليه .

(١) أبحره : أدخله فى البحر . ثعالة :
 الثعلب .
 (٢) بيت : تصنيف بيت . النضارة : التعميم .
 (٣) زباله : موضع فى صحراء الكوفة .
 (٤) بلالة العيش : ما يسد الرميح .
 (٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .
 (٦) بيد : جمع بيداء وهى الفلاة . وتباله :
 بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .